محمود محمد طه

رسالة الصلاة

الطبعة الخامسة

ربيع الثانى ١٣٩٠ - يونيو ١٩٧٠

امدرمان - السودان - ص ٠ ب ١١٥١

الاهـــــــداء

الى كل رجـــل وكل امــرأة

حيث وجد الرجال والنساء

بسم الله الرحمن الرحيم

« فاصبر على ما يقولون ، وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس ، وقبل غروبها ، ومن آناء الليل فسبح ، واطراف النهار ، لعلك ترضى * ولا تمدن عينيك الى ما متعنا به ازواجا منهم ، زهرة الحياة الدنيا ، لنفتنهم فيه ، ورزق ربك خير وابقى »

صدق الله العظيم

مقدمة الطبعة الخامسة :

هذه مقدمة الطبعة الخامسة من كتاب : « رسالة الصلاة » وهو كتاب قد لقى ، بحمد الله ، وبتوفيقه ، اقبالا كبيرا ، ولا يزال الطلب عليه يوجب اعادة طبعه .. ان الصلاة كانت ، ولا تزال ، ولن تنفك اعظم عمل الانسان ، ولكن الناس لا يعرفونها .. هم لا يعرفون لها هذا القدر ، وذلك لأنهم لا يعرفون كيف يصلون ..

.. يقول ، تبارك ، وتعالى ، لنبيه ، عن الصلاة : « وامر اهلك بالصلاة ، واصطبر عليها ، لانسالك رزقا .. نحن نرزقك ، والعاقبة للتقوى » والتقوى ههنا « الصلاة » فكان الصلاة ، عندما تتسامى الى القمة ، تكون هى سبب الرزق ، وتغنى عن الكدح الذى هو السبب المالوف .. ولكن ، اى صلاة هذه ؟؟ هذه هى الصلاة التى

تكون فيها لربك كما هو لك .. هو معك دائما .. فاسال نفسك : هل أنت معه دائما ؟؟ فان لم تكن ، فصل !! فانك لم تصل !! انك لم تصل هذه الصلاة ، وانت لم تؤمر باقامة الصلاة الشرعية الا لتفضى بك الى هذه الصلاة ..

تعلموا كيف تصلون ..

لقد صدرنا هذه المقدمة بآيتين هما فى الصلاة ، وفى الرضا ، الذى هو ثمرة الصلاة .. ((وسبح)) الواردة فى الآية معناها صل .. وهى من السبح ، وهو التصرف ، والانتشار ، والتقلب فى الارض طلبا للمعاش .. ولقد قال تعالى فى هذا المعنى : ((ان لك فى النهار سبحا طويلا)) فكان الصلاة حركة ، وانها لكذلك .. هى حركة من الغفلة الى الحضرة ، ومن البعد الى القرب ، ومن الجهل الى المعرفة .. وهى يجب ان تكون حركة خلف الله ، لا امامه ، فى رضا به ، لامنازعة له .. وهذا هو معنى قوله ، تبارك ، وتعالى : ((وسبح بحمد ربك)) وذلك من قوله : ((فاصبر على ما يقولون ، وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس ، وقبل غروبها ، ومن آناء الليل فسبح ، واطراف النهار ، لعلك ترضى)) والرضا هو طمانينة النفس لما تجد من برد الراحة بسكون جيشان الخواطر المشوشة فى الداخل .

تعلموا كيف تصلون ..

لقد كان النبى اكبر من صلى ، واكبر من عرف كيف يصلى ، واكبر من عرف قيمة الصلاة .. كان اذا حزبه امر قام الى الصلاة فتهون بالصلاة ، فى نفسه ، مصائب الدنيا ، لانه يلقى بالصلاة الحبيب الاعظم .. ولقد قال : ((حبب الى من دنياكم ثلاث :

النساء ، والطيب ، وجعلت قرة عينى فى الصلاة)) .. اقرأ مرة اخرى : ((وجعلت قرة عينى فى الصـــــلاة)) .. و ((قرة عينى)) تعنى ((طمأنينة نفسى)) .. فكأن نفســـه تتكدر ، وقلبه ينقبض ، وخاطره يتشوش ، فيضطر الى الصلاة اضـطرارا فاذا قام اليها فاكتحلت بصيرته برؤية الحبيب الاعظم ــ الله ــ صفت نفسه .. وانبسط قلبه وسكن خاطره واصبح راضياً بالله ، قرير العين به .. ((وجعلت قرة عينى فى الصلاة)) ..

تعلموا كيف تصلون ..

ان الصلاة انما هى منهاج بممارســــته نستطيع النظر الى داخلنا حتى نلتقى بأنفسنا ، فنعايشها ، ونعرفها ، ونحقق السلام معها .. ذلك بأننا انما نعايش العالم الخارجى مستغرقين بأوهام حواســنا عنه ، لاهين به عن الحقيقة المركوزة وراءه ، والتى انما هو ظلها .. وقد جعله الله دليلا عليها ، لا بديلا عنها ، ثم قال فى ذلك ((سنريهم آياتنا فى الآفاق ، وفى انفسهم ، حتى يتبين لهم انه الحق .. او لم يكف بربك انه على كل شىء شـــــهيد ؟؟)) فآيات الآفاق وسيلة ،وآيات النفوس غاية ، ولا تغنى الوســـيلة غناء الغاية .. وما الوقوف معها ، والاحتجاب بها ، الا خسرانا مبينا ، وذلك ما نحن لآفته معرضون ، وفى خطره متورطون .. فلكاننا نحن من فرط ما تحتوشـــنا دواعى الغفلة قوم نيام .. نحن بحق قـــوم نيام .. الم يقل المعصــوم ((الناس نيام ، فاذا ماتوا انتبهوا)) ؟؟ بلى !!

وان لنا الى الانتباه لوسيلة اخرى غير وسيلة الموت ، وقبل وسيلة الموت ، وتلك هى وسيلة الصلاة الواعية ، الصــحيحة ، الرشيدة .. وقد امرنا بها المعصــوم حين امرنا : ((موتوا قبل ان تموتوا)) يعنى ارفعوا حجـــاب الغفلة عنكم بالاطـــلاع على حقائق

الأمور المركوزة وراء الظواهر ، الآن ، وذلك بوسيلة الصــلاة ، قبل ان يجرى عليكم ذلك بوسيلة الموت ، فيما بعد ، فيكون الأوان قد فات ، والندم قد وقع ، ولات حين مندم ..

تعلموا كيف تصلون ..

لكى ترفعوا عن بصــــائركم ، وابصــاركم ، حجب الاوهام والاباطيل ، وانما من أجل هذا التعليم كتب هذا الكتاب الذى بين ايديكم .. كتاب « رسالة الصلاة » والله هو المسئول ان ينفع به ، انه نعم المولى ، ونعم المجيب ..

* ● *

* ● *

بسم الله الرحمن الرحيم

« قل اننى هدانى ربى الى سراط مستقيم ، دينا قيما ، ملة ابراهيم ، حنيفا ، وما كان من المشركين * قل ان صـــلاتى ، ونسكى ، ومحياى ، ومماتى ، لله رب العالمين * لا شريك له ، وبذلك امرت ، وانا اول المسلمين • »

صدق الله العظيم

مقـــدمة الطبعة الرابعـــة

هذه هى الطبعة الرابعة من كتاب « رســالة الصــلاة » •• نصــدرها فى هذا الشــهر المبارك ، وكانت الطبعة الاولى منه قد صدرت للناس فى مثل هذا الشــهر المبارك من عام ١٣٨٥ ، وكان يوافق شهر يناير عام ١٩٦٦ ، ثم ان طبعته الثانية ظهرت بعد مرور عام على طبعته الاولى ، وذلك قد كان فى شهر الله المبارك رمضان من عام ١٣٨٦ وكان يوافق يناير عام ١٩٦٧ •• ثم ظهرت الحاجه الى طبعته الثالثة فصدرت فى شــهر محرم من عام ١٣٨٨ ، وكان هذا يوافق شهر ابريل من عام ١٩٦٨ ••

ولم تظفر أى من هذه الطبعات بمقدمة خاصة بها ، وانما كان ذلك بســبب الحاح الأعمال الاخرى علينا •• والآن ، ونحن نعد العدة لاخراج الطبعة الرابعة ، فانا ، بفضل الله ، وبتوفيقه ، نجد الوقت ، ونجد العافية ، لتصـــديره بمقدمة طويلة تتناول بعض قضاياه باستقراء جديد ••

وليس فى عمل الانسان ما هو اهم ، ولا اكمل ، ولا ماهو اعود بالخير ، والنفع ، عليه ، ولا على الانسانية ، من الصلاة ..

والله تبارك وتعالى يقول : ((من كان يريد العزة فلله العزة جميعا ، اليه يصعد الكلم الطيب ، والعمل الصالح يرفعه ..))

فالكلم الطيب هو التوحيد .. هو ((لا اله الا الله)) .. والعمل الصالح ، على رأسه الصلاة ، والاعمال الصالحة الاخرى تتبع .. وهى انما يكون صلاحها بصلاح الصلاة ..

والصلاة فريضة ليس فى الدين ما هو اوكد منها .. فاذا كانت الشهادتان فى الدين اول الكلام ، فان الصلاة فيه اول العمل .. وهى علم ، وعمل بمقتضى العلم ، وهذا ، فى حد ذاته ، يجعلها شديدة الأثر فى توحيد البنية البشرية .. وحكمة مشروعيتها ترجع الى هذا النفع الجليل .. والصلاة ، من ثم ، ليست عمل الشيوخ، او عمل السذج ، والبسطاء ، غير المثقفين ، كما يخيل للشباب ، فى وقتنا الحاضر ، وانما هى عمل الانكياء ، والمثقفين ، فى المكان الاول .. وسنبذل محاولة هنا ، فى هذه المقدمة ، للتعريف بهذا الامر .. وسيتجه الحديث الى الدين ، والى الانسان ، والى العقل ، والى وحدة البنية البشرية ، التى بها يكون الكمال الذى ننشده جميعا ، ونخطىء الطريق اليه .. وبالله التوفيق ..

الدين ..

الدين ما هو ؟

للدين معان كثيرة .. فهو يعنى الاكراه ، ويعنى الطاعة ، ويعنى القهر والغلبة .. هذا فى مستوى .. وفى مستوى آخر ، هو يعنى السيرة ، والنهج والمعاملة ..

ففى المعنى الأول ، ورد قوله تعالى : ((افغير دين الله

يبغون ، وله اسلم من فى السـموات والارض طوعا ، وكرها ، واليه يرجعون ؟ »

وفى المعنى الثانى ورد قوله تعالى : « ومن احسن دينا ممن اسلم وجهه لله ، وهو محسن ، واتبع ملة ابراهيم حنيفا ؟ واتخذ الله ابراهيم خليلا ! » والدين فى هذين المستويين دينان ، بينهما اختلاف مقدار •• ويمكن تسـميتهما بالدين العام ، والدين الخاص •• ويمثل الدين العام حلقة ، خارجية ، محيطة ، ويمثل الدين الخاص حلقة ، داخلية ، محاطا بها ••

فاما الدين العام فهو شأن الخلائق جميعها ، واليه الاشارة بقول الله تعالى : « تسبح له السموات السبع ، والأرض ، ومن فيهن ، وان من شىء الا يسبح بحمده ، ولكن لا تفقهون تسبيحهم •• انه كان جليما غفورا • » وهو بذلك يعنى الأرادة الالهية التى قهرت العناصر ، وسيرت الخلائق الى مصيرها المقدور •• وعن هذا الدين لا يشذ شاذ ، ولا يخرج عليه خارج •• ولا تقع فيه معصية من عاص •• فليس فى حقه الا الطاعة •• وفى شرعه ، من عصى فقد اطاع ، فى عين ما قد عصى •• وليس بطاعة الطائع فيه عند الله عبرة ••

واما الدين الخاص فهو دين الجن والانس ـــ وهو بذلك دين العقول المكلفة بترويض الشهوة •• وهو انما سـمى دين العقول لأن فى شرعه تقع المعصية •• والمعصية هى مخالفة الحكم

الشرعى فى العمـــل ، أو القول ، أو كليهما .. وحكمة الحكم الشرعى قائمة فى العقل الكلى القديم ، ومراد هذا الدين تسيير العقل المحدث فى طريق مرضاة العقل القديم ، ولذلك فان العبرة فى العمل فيه بالنية .. والنية هى استحضار القصـــد من وراء العمل فى العقل ، قبيل الشروع فى العمل ..

وحين يمثل الدين العام إرادة الله ، يمثل الدين الخاص رضوانه .. وانما يستصفى الدين الخاص ، من الدين العام ، كما يستصفى ماء الانهار ، من ماء البحار ، بفضل الله ، ثم بفضل حرارة الشمس التى بها تبخير الماء ، وتصريف الرياح ، وتسخير السحاب بين السماء والأرض .. فالله ، تبارك وتمالى ، قد ارسل رسله لاستصفاء رضوانه من ارادته ، كما سـخر شـمسه لاستصفاء مائه العذب ، من مائه الملح .. ومصافى الرضوان من الارادة هى العقول البشرية . ومن أجل ان تقوى هذه العقول على الاضطلاع بهذه المهمة امدها الله بالعقول الملائكية ـ بالوحى ـ بجبريل ـ وانما الوحى مرحلة ، ريثما تستغنى العقول عنه ، بفضل الله ، ثم بفضل تفجير الطاقة التى أودعها الله فى البنية البشرية ..»

وهـذا ايضـا ما من أجله قلنا ان الدين الخاص هو دين العقول .. وليســت هناك كرامة ترجى ، لا فى الدنيا ، ولا فى الآخرة ، الا والعقول طريقها ..

الأنســـــان ..

الانسان ما هو ؟ ومن هو ؟

الانسان حيوان نزل منزلة الكرامة بالعقل .. والانســـان لا يزال فى طور التكوين ، ولن يكون لاســـتمرار تكوينه نهاية ، فهـــو يتنقل فى منازل الكمال تنقلا سرمديا .. والحيوان يتنقل ايضا ، وقصاراه فى ذلك أن ينزل ادنى منازل الانسان .. فكأن الاختلاف بين الحيوان والانسان اختلاف مقدار ، وليس اختلاف نوع .. والتوحيد يطلب الينا أن ننظر الى جميع المخلوقات ، بله الاحياء ، كسلسلة واحدة متصلة الحلقات ، وان كان حجم الحلقات يختلف اثناء السلسلة .. ولدى هذه النظرة ، فليس فى الوجود الحادث غير الانسان ، وجميع مانراه ، وما لا نراه ، من هذا الوجود ، انما هو الانســـان فى اطوار مختلفة ومتتالية .. والى هذا المعنى المتكامل الاشارة بقوله تعالى : « هل اتى على الانسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا ؟ » ومعنى « هل » هنا « قد » وهذا الحين من الدهر هو امد ممدود ، ودهر دهير ..

وللانسان فى هذه النشأة الطويلة اربع مراحل متصـــلة الحلقات ، ولا يفصل بينها الا حلقات من الســـلسلة ، اكبر من سابقاتها ، تمثل قفزة فى سير التطور .. وتمثل هـــذه القفزة بدورها حصيلة الفضائل العضوية التى استجمعت من خلال المرحلة السابقة .. وهذا التقســـيم الى اربع مراحل انما هـــو لتبســـيط البحث فقط : والا فان فى داخل كل مرحلة ، مراحل

يخطئها العد •• وسنجمل الحديث عن هذه المراحل فيما يلي :

المرحلة الاولى من نشأة الانسان ••

هذه تعنى تطوره فى المادة غير العضـــوية منذ بروزه فى الجسد •• وهو بروز فى الازل — فى بدء الزمن •• والى هذه البداية السحيقة اشار تعالى بقوله : « اولم ير الذين كفروا ان السموات ، والارض ، كانتا رتقا ، ففتقناهما ، وجعلنا من الماء كل شيء حى ، افلا يؤمنون ؟ » ••الرتق ضد الفتق ، وهو يعنى الالتئام •• وعن هذا الامر المرتوق ، قال تعالى ، فى موضـــع آخر : « ثم اســـتوى الى الســـماء ، وهى دخان ، فقال لها ، وللارض ، ائتيا طوعا ، أو كرها • قالتا اتينا طائعين » والدخان هنا يعنى الماء ، فى حالة بخار •• فقد كانت السموات والارض سحابة من بخار الماء ، مرتتقة ، ففتقت ، وبرز التعدد من هذه الوحدة •• ولم تكن جرثومة الانسان يومئذ غائبة •• وانما كانت هى ذرات بخار الماء •• ومن يومئذ بدأ تطور الانسان العضوى يطرد ، تحفزه ، وتوجهه ، وتسيره ، وتقهره ، وتصهره ، الارادة الالهية المتفردة بالحكمة •• وقد انفق فى هذه المرحلة من مراحل النشأة أمداً يعجز الخيال تصوره •• ثم انتهت هـــذه المرحلة ببروز المادة العضوية ••

المرحلة الثانية من نشأة الانسان ••

وببروز المادة العضوية من المادة غير العضوية ظهرت الحياة ،

كما نعرفها نحن •• والا ، فان جميع المادة ، عضـــوية ، أو غير عضوية ، حية •• وكل ما هناك ، أن الحياة بدأت تبرز فى المادة العضوية ، بعد أن كانت كامنة فى المادة غير العضـــوية •• فهى لم تجىء من خارج المادة ••

وأدنى درجات الحياة ، التى نسميها اصطلاحا حياة ، أن يكون الحى شاعرا بحياته •• وآية ذلك ان يتحرك الحى ، حركة تلقائية ، وان يتغذى ، وان يتناسل •• وقد بدأت هـــذه الحياة بحيوان الخلية الواحدة •• وبهذه الخطوة الجليلة ، والخطيرة ، افتتح عهد جديد •• عهد عظيم •• عهد الحياة والموت •• ومن يومئذ بدأ رأس سهم الحياة ، وطليعتها في السير •• يالها من بداية !! وفى ذلك قال تعالى : « ولقد خلقنا الانسان من صلصال من حمأ مسنون » •• الحمأ الطين الاسود •• والحمأ المسنون الطين المتغير ، المنتن •• والصلصال الطين اليابس ، الذى يصل أى يصوت اذا لمسته •• وانما احمومى الحمأ لانه قد طبخ بحمو الشمس •• وذلك لأن الارض كانت قطعة من الشمس انفصلت عنها ، واخذت تبرد ، وتجمد ، وتتهيأ لظهور الحياة عليها •• ثم ظهرت الحياة بين الماء والطين •• والى ذلك الاشـــــارة بقوله تعالى : « هل اتى على الانسان حين من الدهر لم يكن شـــيئا مذكورا ؟ * انا خلقنا الانسان من نطفة ، امشـــاج ، نبتليه ، فجعلناه سميعا بصيرا » •• فان النطفة ، فى هـــذه المرحلة من مراحل النشأة البشرية تعنى الماء الصافى •• وأمشـــاج ، جمع

بمشيج •• من مشج ، يمشج ، مشجا ، اذا خلط بين شيئين •• وهما هنا الماء والطين •• فالنطفة الأمشاج ، هى الماء المخلوط بالطين ••

وهذه المرحلة الثانية ، من مراحل النشأة البشرية ، التى بدأت بحيوان الخلية الواحـــدة ، فى القاعدة ، تنتهى عند أعلى الحيوانات الثديية ، فى القمة •• وحين تبدأ المرحلة الثالثة من مراحل النشأة ، انما تبدأ بقفزة جديدة ، مذهلة ، بها يدخـــل الانسان ، كما نعرفه اليوم ، فى مسرح الحياة ••

المرحلة الثالثة من نشأة الانسان ••

هذه هى المرحلة التى نحن نعيش الآن فى أخريات أيامها ، وهى قد بدأت يوم ظهر آدم النبى ــ الانســـــان المكلف ــ فى الارض •• وآدم هذا ، ليس هو آدم الخليفة ، الذى خلقه الله كاملا ، أو يكاد ، فى الجنة ، واسجد له الملائكة •• وانما هو طور من اطوار ترقى الخلقة التى انحطت عن آدم الخليفة ، نحو مرتبة آدم الخليفة •• ذلك بأن آدم الخليفة ــ آدم الكامل ــ قـــد خلق فى الجنة ــ فى الملكوت ــ ثم لما ادركته الخطيئة طـــرد من الجنة ، واهبط الى الارض •• وفى ذلك يقول الله تبارك وتعالى : « فتعالى الله الملك الحق ، ولا تعجل بالقرآن من قبل ان يقضى اليك وحيه ، وقل رب زدنى علماً * ولقد عهدنا الى آدم ، من قبل ، فنسى ، ولم نجد له عزماً * واذ قلنا للملائكة اسجدوا

لآدم ، فسجدوا ، الا ابليس ، ابى * فقلنا : ياآدم ، ان هذا عدو لك ، ولزوجك ، فلايخرجنكما من الجنة ، فتشقى * ان لك الا تجوع فيها ، ولا تعــــرى * وانك لا تظمأ فيها ، ولا تضحى * فوسوس اليه الشيطان ، قال : يا آدم هل ادلك على شـــجرة الخلد ، وملك لا يبلى ؟ * فأكلا منها ، فبدت لهما سوآتهما ، وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ، وعصى آدم ربه ، فغوى * ثم اجتباه ربه ، فتاب عليه ، وهدى * قال : اهبطا منها ، جميعاً ، بعضكم لبعض عدو ، فاما يأتينكم منى هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ، ولا يشقى * ومن اعرض عن ذكرى فان له معيشة ضنكاً ، ونحشره ، يوم القيامة ، اعمى » •• وعن طرد آدم من الجنة ، واهباطه الى الارض ، بعد خلقته فى اقرب صورة الى الكمال • ورد القول الكريم : « لقد خلقنا الانسان فى احسن تقويم * ثم رددناه اســـفل سافلين * الا الذين آمنوا ، وعملوا الصالحات ، فلهم أجر غير ممنون » وكان آدم ، وزوجه ، من الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، فأنهما تابا ، وندما، بعد الزلة ، وقالا : « ربنا ظلمنا انفســــنا ، وان لم تغفر لنا ، وترحمنا ، لنكونن من الخاسرين » هذا فى حين ان ابليس ، الذى تولى اغواءهما ، لم يتب ، ولم يندم ، ولم يطلب المغفرة ، ولا الرحمة ، وانما طلب الامهال ، والأنظار : « انظــرنى الى يوم يبعثون » فلما اجيب الى طلبه : « انك من المنظرين » ، اظهــر اصراراً على الاستمرار فى الاغواء : « فبما اغويتنى لأقعدن لهم

صراطك المستقيم * ثم لآتينهم من بين ايديهم ، ومن خلفهم ، وعن أيمانهم ، وعن شمائلهم ، ولا تجد اكثرهم شـــاكرين » ولذلك لما ردوا جميعا الى اسفل سافلين ترك هو هناك ، واستنقذ الله آدم وزوجه ، وهداهما بايمانهما سـبيل الرجعى .. فهذا معنى قوله تعالى : « الا الذين آمنوا ، وعملوا الصالحات ، فلهم اجر غير ممنون » وعندما رد آدم الى اسفل سافلين كان فى نقطة بدء الخليقة – فى مرتبة بخار الماء – ثم بدأ سيره ، بتوفيق الله ، فى مراقى القرب ، حتى اذا بلغ مبلغ النبوة على الارض ، فكان الانسان المكلف الاول ، كان قد بدأ ينزل بصورة ، محسوسة ، اول منازل القرب من مقام الخلافة العظيمة التى فقدها بالمعصية ، ولكنه كان لا يزال عن كمالها بعيدا .. وبنزوله هـــذه المنزلة الشريفة اصبح له ذكر فى الملكوت ، بعد ان ســـقط ذكره زمنا طويلا .. وفى ذلك يقول تعالى : « هل أتى على الانسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا ؟ »

النبوة الاولى – خلافة الارض :

وهذه المنزلة التى نزلها آدم ، فى طريق العودة من التيه ، والتى كان له بنزولها ذكر في ملكوت الله ، هى منزلة أول نبوة على هـــذه الأرض ، وبذلك فـان نازلهـا أول خـليفة في هذه الأرض .. وقد حاول نزولها قبل آدم ابو البشر أوادم كثيرون ، فلم يفلحوا ، وانقرضوا ، واسـتمرت محاولة طلائع سلالة الطين فى نزول هـــذه المنزلة الشريفة ، وكان الفشل لهم

بالمرصاد ، حتى اذا استقر فى اذهان الملائكة انهم لن يفلحوا ، تأذن الله بظهور المحاولة الناجحة ، فكان آدم ابو البشر .. ولما آذن الله ملائكته بأنه سيجعل ، من سلالة الطين ، فى الارض خليفة ، عارضوا : « واذ قال ربك للملائكة انى جاعل فى الارض خليفة ، قالوا : أتجعل فيها من يفسد فيها ، ويسفك الدماء ، ونحن نسبح بحمدك ، ونقدس لك ؟ قال : انى اعلم مالا تعلمون ❊ وعلم آدم الاسماء كلها ، ثم عرضهم على الملائكة فقال : انبئونى باسماء هؤلاء ، ان كنتم صادقين ❊ قالوا سبحانك ، لا علم لنا الا ما علمتنا ، انك انت العليم الحكيم ❊ قال يا آدم انبئهم باسمائهم ، فلما انبأهم باسمائهم ، قال : ألم اقل لكم انى اعلم غيب السموات ، والارض ، واعلم ما تبدون ، وما كنتم تكتمون ؟ » . ولقد عارض الملائكة فى اتخاذ الله الخليفة من سلالة الطين قياسا على سابق علمهم ، المستمد من سابق تجاربهم مع الأوادم السابقين .. فلما كشف الله لهم كمال النشأة البشرية المتمثل فى مقدرتها على التطور ، والترقى ، والخروج ، باستمرار ، من الجهل الى العلم ، اذعنوا ، وانقادوا .

ولقد جرت جميع هذه الامور ثلاث مرات ، ثلاث مرات .. فآدم قد خلق ثلاث مرات : مرتين فى عالم الملكوت ، ومرة فى عالم الملك .. ذلك بان الاسماء المسيطرة على الخلق هى العالم ، المريد ، القادر .. فبالعلم احاط الله بمخلوقاته ، فى عالم الملكوت ، وبالارادة نزل بالاحاطة الى التخصيص ، فكان اقرب

الى التنفيذ ، وان لم يزل فى عالم الملكوت ، ولكن مما يلى عالم الملك •• وبالقدرة نفذ فى عالم الملك ، ما تمت الاحاطة به اجمالا ، وتم تخصيصه تفصيلا ، فى عالم الملكوت •• فعالم الملكوت عالم العقول ، وعالم الملك عالم الاجســـــاد •• وكل شىء فى عالم الملكوت مسيطر على نظيره فى عالم الملك •• لأن عالم الملكوت عالم لطائف ، وعالم الملك عالم كثائف •• ولكل لطيف ســلطان على كل كثيف •• وهذا معنى قوله تعالى : « فسبحان الذى بيده ملكوت كل شىء ، واليه ترجعون » •• وانما ترجع كثائفنا الى لطائفنا ، وذلك بخضوع نفوسنا ، وهى كثائف ، لعقولنا ، وهى لطائف •• وقمة اللطائف فى ذات الله ، ومن ثم وجب الرجوع اليه تعالى ، وانما يكون الرجوع بتقريب صفاتنا من صفاته ، وذلك بفضل مدركات العقول المرتاضة بادب الحق ، وادب الحقيقة ••

نشـــــأة العقل ••

العقل هو القوة الدراكة فينا •• وهو لا يختلف عن الجســـد اختلاف نوع ، وانما يختلف عنه اختلاف مقدار •• فالعقل هو الطرف اللطيف من الحواس •• والحواس هى الطرف اللطيف من الجسد •• وانما بصهر كثائف الجســـد ، تحت قهر الارادة الالهية ، ظهرت لطائف الحواس ، ثم لطائف العقول ••

ولقد امتازت هذه المرحلة الثالثة من مراحل نشأة الانســـان بظهـــور العقل •• ولم يكن العقل غائبا عن المرحلة الاولى ، والمرحلة الثانية ، من مراحل النشــأة ، ولكنه كان كامنا كمون

النار فى الحجــر ، ثم صــحب بروزه ، من الكمون الى حيز المحســوس ، هذه المرحلة الثالثة •• وعن حركة بروز العقل ، ووسيلة بروزه ، يخبرنا الله تبارك وتعالى ، فيقول : « انا خلقنا الانسان من نطفة ، امشاج ، نبتليه ، فجعلناه سميعا بصيرا * انا هديناه الســبيل ، اما شاكرا ، واما كفورا » •• فالنطفة الامشــاج تعنى الماء المخلوط بالطين ، وذلك عند ظهور الحياة بالمعنى الذى نعرفه ، وهــذا يؤرخ نهاية المرحلة الاولى ، من مراحل نشأة الانســـان ، وبداية المرحلة الثانية •• ولا تزال الحياة ، فى القاعدة ، تستمد من هذا المصدر •• ثم اخذت الحياة تلد الحياة ، بطريقة ، أو باخرى ، وذلك فى مراحلها الدنيا ، وقبل ان تتطور ، وتتعقد ، وتبرز الوظائف المختلفة ، للاعضـــاء ، وللانواع •• وقبل ان تبرز الانثى بشكل مستقل عن الذكر •• وتمثل هذه الحقبة طرفا من المرحلة الثانية من مراحل نشـــأة الانســـان •• ثم عندما ارتقت الحياة ، وتوظفت الوظائف ، اصبحت الحياة تجىء من التقاء الذكر بالانثى ، واصـــبحت النطفة الأمشاج تعنى ماء الفحل ، المختلط ببويضة الأنثى ••

وكل السر فى عبارة « نبتليه » ، لأنها تشير الى صهر العناصر فى الفترة التى سبقت ظهور المادة العضوية •• وتشير الى صراع الحى مع بيئته الطبيعية ، بعد ظهــور أول الأحياء ، والى يوم الناس هــذا •• « فجعلناه » نتيجــة لهذا الابتلاء ، والبلاء ، « سميعا بصيرا » اشارة إلى بروز الحواس فى الحى ، الواحدة

تلو الاخرى .. وبعد ان اكتملت الحـواس الخمس ، واصبح الحى حيواناً سوياً انختمت المرحلة الثانية من مراحل النشـأة البشرية ، وبدأت المرحلة الثالثة ، وذلك ببروز لطيفة اللطائف ــ العقل ــ والى ذلك الاشارة بالآية السابقة « انا هديناه السبيل ، اما شاكراً ، واما كفورا . » .. « اما شـاكراً ، واما كفورا » تعنى انا هديناه الى الشكر عن طريق الكفر ، أو قل الى الصواب، عن طريق الخطأ .. واليه أيضا الاشـارة بقوله تعالى : « ألم نجعل له عينين ؟ * ولسانا وشفتين ؟ * وهديناه النجدين ؟ » .. قوله : « ألم نجعل له عينين ؟ » اشارة الى الحواس جميعها .. قوله « ولسانا وشفتين ؟ » اشارة الى العقل .. فانه هنا لم يعن باللسان مجرد الشريحة المقدودة من اللحم ، والتى يشارك الانسان فيها الحيوان ، وانما اشار باللسان الى النطق باللغة ، ولذلك ذكر الشفتين لمكانهما من تكوين الاصـوات المعقدة ، المختلفة التى تقتضيها اللغة .. واللغة ترجمان العقل ، ودليله .. ثم قال : « وهديناه النجدين » .. أصل النجد ما ارتفع من الارض .. وهو هنا الطـريق المرتفع .. و « النجـدين » الطريقين : طريق الخطأ ، وطريق الصواب .. ولقد هدى الله الانسان الطريقين .. فهو يعمل ، فيخطىء ، فيتعلم من خطئه .. وحين هدى الله الانسان النجدين ، لم يهد الملائكة الا نجـداً واحداً ، وهو ايضا لم يهد الشياطين الا نجداً واحداً .. وذلك

ان الله ، تبارك وتعالى ، خلق شـــهوة بغير عقل ، وركبها فى الشياطين ، ومن قبلهم ، الى اعلى الحيوانات ،ما خلا الانسان ، فهم يخطئون ، ولا يصيبون •• وخلق عقولا بلا شهوة ، وركبها فى الملائكة ، فهم يصيبون ، ولا يخطئون •• ثم جعل الانســان برزخاً ، تلتقى عنده النشأتان : النشأة السفلية ، والنشــأة العلوية ، فركب فيه الشــهوة ، وركب فيه العقل ، وامره ان يسوس شهوته بعقله •• فهو فى صراع ، لا يهدأ ، بين دواعى الشر ، ودواعى الخـير •• وبين موحيات الخطأ ، وموجبات الصواب •• فذلك معنى قوله ، تبارك وتعالى ، « وهــديناه النجدين » •• وهذه النشأة « البرزخية » التى جمعت بين الخطأ والصــواب هى التى جعلت مطلق بشر اكمل من مطلق ملك •• ولمكان عزتها قال المعصوم : « ان لم تخطئوا ، وتســتغفروا ، فسيأت الله بقوم يخطئون ، ويستغفرون ، فيغفر لهم •• » •• وعزة هذه النشأة فى مكان الحرية فيها •• لأن حق الخطأ هــو حق حرية ان تعمل ، وتخطىء ، وتتعلم من خطئك كيف تحسن التصرف فى ممارسة حريتك ، بغير حد ، الا حداً يكون منشــأه عجزك عن حسن التصرف •• وذلك عجز مرحلى ، لن تلبث ان تخرج منه الى قدرة اكبر على حسن التصرف ، وهكذا دواليك •• والحرية هى روح الحياة •• فحياة بلا حرية انما هى جســد بلا روح •• ويكفى ان نقول ان الحرية هى الفيصــل بين حياة الحيوان ، وحياة الانسان •

وفى بدء الحياة كان الشـــعور • وادنى درجات الحياة ان يشعر الحى بوجوده •• وليس فيما دون هذا الشعور حياة •• ويوجب هذا الشعور بالوجود احساس الحى بالحر ، وبالبرد ، وبالألم •• وجاء من هذا الاحساس الحركة للفرار من الحـــر المضر ، ومن البرد المضر ، ومن كل الم ، والى كل لذة ممكنة •• وبوحى من الفرار من الالم ، والسعى فى تحصيل اللذة ، جاءت القدرة على تحصيل الغذاء ، والالتذاذ به ، وجاءت القدرة على التناسل ، والالتذاذ به •

وكان حيوان الخلية الواحدة يحس بكل جسده الرخو ، ثم تعقدت الحياة ، وارتقت ، ورهف احســــــاسها بالخطر الذى يتهددها ، فظهرت الحاجة الى الوظائف المختلفة ، فكان على الجلد ان يتكثف ، ويغلظ ، ليكون درقـــة ، ودرعا ، وكان على بعض اجزاء الجسد ، غير الجلد ، ان تقوم بوظيفة الحس •• وهكذا بدأ نشوء الحواس •• ونحن ، لطول ماألفنا الحواس الخمس نتورط فى خطأ تلقائى ، اذ نظن ان الاحياء قد خلقت وحواسها الخمس مكتملة •• والحق غير ذلك •• فان الحواس نشـــأت ، الواحدة ، تلو الاخرى ، كلما ارتقت الحياة ، وتعقدت وظائف اعضاء الحى •• ففى البدء كان اللمس بالجسم كله — بالجلد — ثم لما توظف الجلد فى الوقاية ، خصصت بعض الاجزاء للمس •• ثم ارتقت وظيفة الحس لما احتاج الحى للمس ، والخطر على البعد ، فامتدت هذه الوظيفة ، امتدادا لطيفا ، فكان الســـمع ،

ثم كان النظر ، ثم كان الذوق ، ثم كان الشم •• وليس هـذا ترتيب ظهور للحواس ، ولا هـو ترتيب اكتمال •• فان بعض الاحياء يحتاج لحاسـة معينة اكثر من احتياجه للاخريات ، فتقوى هذه على حساب اولئك ، مع وجود الاخريات ، بصورة من الصور ••

والآن ، فان الحيوانات العليا ، بما فيها الانسان ، ذات خمس حواس •• وليس هذا نهاية المطاف •• فان ، فى الانسان ، الحاسة السادسة ، والحاسة السابعة فى اطوار الاكتمال ، ولا يكون ، بعد الحاسة السـابعة ، تطور فى زيادة عدد الحواس ، وانما يكون تطـور فى كمالها •• وهذا لا ينتهى ، وانما هـو سرمدى ••

ما هى الحاسة السادسة ؟؟

هى الدمـاغ •• ووظيفتها الادراك المحيط ، والموحـد (بكسر الحاء) لمعطيات الحواس الأخـرى ـ اليد ، والاذن ، والعين ، واللسان ، والانف ـ فى الحس ، والسمع ، والبصر ، والذوق ، والشم •• فاذا قويت يكون ادراكها لكل شىء عظيم الشمول ، فلكأنها تحسه ، وتسمعه ، وتراه ، وتذوقه ، وتشمه ، فى آن واحد ••

ما هى الحاسة السابعة ؟؟

هى القلب •• ووظيفتها الحياة •• وهذه الحاسة هى الاصل ،

وجميع الحواس رسلها ، وطلائعها ، الى منهل الحياة الكاملة ..
ولقد نشـــأت الحياة وســط الخوف .. قال تعالى فى ذلك :
« لقد خلقنا الانسان فى كبد » والكبد المشقة ، ولقد دفعت هذه
المشقة ، التى وجدت الحياة نفسها محاطة بها ، الخوف فى اعماق
الاحياء .. ولولا الخوف لما برزت الحياة ، فى المكان الاول ، ولما
ارتقت وتطورت ، فى المكان الثانى .. ثم هى ان لم تنتصر على
الخوف ، فى آخر المطاف ، لا يتم كمالها .. وانما تنتصر الحياة
على الخوف عندما تقوى الحاسة السادسة ، وتدرك الامر على
ما هو عليه ، على النحو الذى وصفنا ، ويومئذ ســيظهر لها ان
الخوف انما هو مرحلة صحبت النشأة فى ابان جهلها ، وقصورها،
وانه ليس هنــاك ما يوجبه فى حقيقة الاشــياء .. فاذا بلغت
الحاسة السادسة هذا المبلغ ، انبسطت الحاسة الســـابعة ـــ
القلب ـــ واطمأنت ، وانطلقت من الانقباض الذى اورثها اياه
الخوف ، واخذت تدفع دم الحياة قويا الى كل ذرات الجسد ،
وكل خلايا الجلد ، تلك التى كان الخوف قد حجرها ، وجعل منها
درقة ، ودرعا ، لصيانة الحياة البدائية .. وبذلك يعود الشعور
لكل الجسد ، ويصـــبح حيا كله ، لطيفا كله ، جميلا كله ، غاية
الجمال .. وتكون ارض الجسد الحى يومئذ هى المعنية بقوله
تعالى : « وترى الارض هامــدة فاذا انزلنا عليها الماء اهتزت ،
وربت ، وانبتت من كل زوج بهيج » ..

هذه هى وظيفة الحاسة السابعة ــ الحياة الكاملة ــ وليس للحياة الكاملة نهاية كمال ، وانما كمالها ، دائما ، نسبى .. وهى تتطور ، تطلب الحياة المطلقة الكمال ، عند الكامل المطلق الكمال ــ عند الله ــ وانما يكون تطورها باطراد ترقى جميع الحواس ، كل فى مجاله ، وانعكاس ذلك على ترقى العقل ، بقوة الفكر ، وشمول الادراك .. وعلى قدر صفاء العقل ، وقوة الفكر ، تكون سلامة القلب ، واتساع الحياة ، وكمالها .. وهذا التطور المترقى بالحواس هو ما عناه الله تعالى بقوله « وانبتت من كل زوج بهيج » ..

لقد وصلنا باستقرائنا لنشأة العقل ، وتطوره ، الى المرحلة الرابعة من مراحل نشأة الانسان . وخضنا فيها ، بعض الخوض ، ونحن لم نفرغ بعد من الحديث عن المرحلة الثالثة من مراحل نشأة الانسان ، وسنوقف هذا الاستقراء لنتحدث قليلا عن المرحلة الرابعة ، ثم نعود ، من جديد ، الى مواصلة الحديث عن المرحلة الثالثة من مراحل نشأة الانسان ، لانها اهم النشآت الاربع ..

المرحلة الرابعة من نشأة الانسان

هذه المرحلة هى مرحلة الكمال ، وهى لما تات بعد .. وبدايتها ارفع من نهاية المرحلة الثالثة . ، ولا يدخلها الداخل الا بقفزة من قمة منازل هذه المرحلة ..

لقد تحدثنا عن المراحل الاربع من نشأة الانسان .. تحدثنا عن المرحلة الاولى ، فقلنا : ان بدايتها فى الازل ، حيث برز الانسان فى الجسد ، فى المادة غير العضوية ــ تلك التى نسميها ، اصطلاحا ، ميتة ــ ونهايتها عند دخول المادة العضوية فى المسرح ..

وتحدثنا عن المرحلة الثانية ، وقلنا : ان بدايتها عند ظهور المادة العضوية ــ تلك التى نسميها ، اصطلاحا ، حية ــ ونهايتها عند ظهور العقل .. ويتضح لنا ، من هذا ، ان الشبه كبير بين المرحلتين : الاولى ، والثانية ، فهما معا مرحلة الجسد الصرف ،

على اختلاف مستوياته ، من ذرة بخار الماء ، والى اعلى الحيوانات الثديية ، ما خلا الانسان ..

واما المرحلة الثالثة فهى تتميز عن المرحلة الثانية ببروز العقل من الجسد ، وهو عنصر جديد ، وخطير ..

واما المرحلة الرابعة فهى تتميز من المرحلة الثالثة بدخول الحاسة السادسة ، والحاسة السابعة ، فى المسرح ، وتلك درجة جديدة ، من درجات الترقى ، تصبح بها الحياة البشرية شيئا جديدا ، مختلفا عما الفنا من قبل .. ولذلك فانا نستطيع ان نقول : ان لدينا ثلاث مراحل لنشأة الانسان : مرحلة الجسد الصرف ، ومرحلة الجسد والعقل المتنازعين ، واخيرا مرحلة الجسد والعقل المتسقين .. ولقد تطورت ، الى الآن ، الحياة على هذا الكوكب فى مضمار المرحلتين : الاولى والثانية : فهى قد كان تطورها الاول تطورا عضويا صرفا ، ثم لما بدأ بروز العقل ، بفضل الله ، ثم بفضل التطور العضوى الصرف ، اخذت فى تطورها الثانى ، وهو تطور عضوى ـ عقلى .. وهذا الطور هو الذى نعيشه نحن الآن ، وانى لأرجو ان نكون انما نعيش فى اخريات أيامه .. وسيجىء يوم ، قريبا ، يصبح التطور فيه عقليا صرفا ، فى مقابلة البداية بالتطور العضوى الصرف ، ذلك الذى كانت به بداية الحياة .. واصحابنا الصوفية يقولون : النهاية تشبه البداية ، ولا تشبهها .. والمؤرخون يقولون : التاريخ يعيد نفسه ، ولكنه لا يعيدها بنفس الصورة .. واحكم القائلين يقول : « كما بدأنا اول خلق نعيده ، وعدا علينا ، انا كنا فاعلين » .. وهو تبارك وتعالى ، لا يعيده بنفس الصورة ، لانه من اسرار الألوهية ، انها لا تقف ، ولا ترجع ، ولا تكرر نفسها .. فلم يبق الا ما قلنا ..

وهذه المراحل الثلاث : مرحلة التطور العضوى الصرف ، ومرحلة التطور العضوى ـ العقلى ، ومرحلة التطور العقلى

الصرف .. يمكن التعبير عنها ، بلغة الدين ، بانها تقابل العوالم الثلاثة : عالم الملك ، وعالم البرزخ ، وعالم الملكوت .. فاما عالم الملك فهو عالم الاجساد ، واما عالم الملكوت فهو عالم العقول ، واما عالم البرزخ فهو عالم المنزلة بين المنزلتين — عالم مرحلى — وهذا هو عالم الانسان الحاضر ، الذى نعيش نحن الآن فى اخريات اطواره ، كما سلفت الى ذلك الاشارة ..

وعالم الملكوت مسيطر على عالمى الملك ، والبرزخ ، فهما تحت قهره ، وحركتهما دائبة فى طلبه ، لانهما انما عنه صدرا ، وقمة الملكوت عند الله ، فى صرافة ذاته ، وعن ذلك قال تعالى : « فسبحان الذى بيده ملكوت كل شىء ، واليه ترجعون » .. وقد سلفت الى ذلك الاشارة ..

ولقد خلق الله كل شىء بالذات ، ثم خلق بالواسطة ، وهى الأسماء والصفات والافعال .. وقد اقتضت حكمته ان يبرز خلقه الى حيز الوجود بثلاث حركات : حركة العلم بالاحاطة ، وحركة الارادة بالتخصيص ، وحركة القدرة بالابراز الى عالم المحسوس .. وهو فى عالم البرزخ قد خلق بثلاثة اسماء : « العالم المريد القادر » .. وهو ، فى عالم الملكوت ، وهو يلى عالم البرزخ من اعلى ، قد خلق بثلاثة اسماء : « الله الرحمن الرحيم » .. وهو ، فى عالم الملك ، وهو يلى عالم البرزخ من أسفل ، قد خلق بثلاثة اسماء : « الخالق البارىء المصور » ..

ومعنى الخالق الذى احاط بمخلوقاته علما ، ومعنى البارىء الذى اعطى خلقه الصورة الاولى ، ومعنى المصور الموالى تقليب الصورة الاولى من خلقه فى الصور المختلفة سيرا فى مراقى التطور حيث يطلب الاخير كمال الاول .. وفى هذا المعنى قال تعالى : « ولقد خلقناكم ، ثم صورناكم ، ثم قلنا للملائكة أسجدوا لآدم ، فسجدوا ، الا ابليس ، لم يكن من الساجدين » فههنا « خلقناكم »

تعنى احطنا علما ببداياتكم ، ونهاياتكم .. و ((صـــورناكم)) تعنى اعطيناكم الصـــورة الاولى ، وهى ذرة بخار الماء .. واما قوله تعالى : ((ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم)) تعنى سخرنا الملائكة فى خدمة البشر ، وذلك لمكان كرامة النشاة البشرية على الملائكية .. وهو ، تبارك وتعالى انما عطف بالحـــرف ((ثم)) ليفيد الترتيب ، والتراخى فى الزمن ، والملائكة سجدوا ، وابليس ايضا سجد ، ولكن الملائكة سجدوا ((طوعا)) وابليس سجد ((كرها)) والفريقان ، على سواء ، مســخران للبشر .. فاما الملائكة فمن اعلى ، واما ابليس ، وذريته ، فمن اسفل ، وبتارجح البشر بين الاثنين يجىء الصواب ، والخطا .. وكلا الصواب والخطا لمصلحة تطور الانسان الى الكمال .. لان بهما ، من البداية ، تم كمال النشاة ..

وفى اعلى معـــانى التطوير فى اختطاط البداية ، والنهاية ، وفى التسيير ، بين البداية ، والنهاية ، جاء قوله تعـــالى : ((اعطى كل شىء خلقه ، ثم هدى)) يعنى هدى الله التطور فى مراقيه .. فاما التطور العضـــوى الصرف ، فهـــداه بالدين العام .. واما التطور العضوى ــ العقلى ، فهداه بالدين الخاص ــ ((مرحلة العقيدة)) .. واما التطـــور العقلى الصرف ، فهـــداه بالدين الخاص ــ ((مرحلة العلم)) .. ولتبيين هـــداية الدين الخاص ، بمرحلتيه ، للتطور العضوى ــ العقلى ، وللتطــــور العقلى الصرف ، نعود لمواصلة الحديث عن المرحلة الثالثة من مراحل نشاة الانسان ، كما وعدنا ، وستكون لنا عودة الى الحـــديث عن المرحلة الرابعة ، ايضا ، حين يمس الحديث التطور العقلى الصرف .

عودة للمرحلة الثالثة من نشأة الانسان

قلنا ان هذه المرحلة تبدا ببروز العقل فى الانســــان ، وقلنا ان العقل لم يكن غائبا عن المرحلتين الاولى ، والثانية ، من مـــراحل

نشاة الانسان ، (وهما معاً قد اسميناهما بمرحلة التطور العضوى الصرف) .. العقل لم يكن غائباً ، وانما كان كامنا فى المـــادة ، فمخضته الحوادث حتى برز الى حيز الوجود .. وقد تحـدثنا عن نشاة العقل ، بشىء من التفصـــيل ، لا نحتاج الى اعادته هنا .. ولكنا ، مع ذلك ، لابد لنا من الحديث عن العقل بشىء من التحديد لم يظفر به حديثنا السالف عن نشاة العقل .. قلنا ان آدم ، بعد ان اقصى الى مقام البعد — مقام اسفل سافلين — استنقذه الله بالتوبة عليه ، فاخذ فى طـريق الرجعى ، فقطع المرحلة الاولى من مراحل نشـــاته ، وقطع المرحلة الثانية ، ايضا ، ودخل المرحلة الثالثة ، وفى هذه نزل منزلة اول نبوة فى الارض ، وفى هـــذه المنزلة اعتبر خليفة ، وجـــرى فى شانه حوار الملائكة مع ربهم ، ولكنهم اقتنعوا به فى آخر الامر ، وسجدوا له .. وقد حصلت له من هذا المقام نكسة ، وجرى عليه الاقصاء ، ولكن بصـورة اخف من تلك التى جرى فيها اقصاؤه من عالم الملكوت الى اسفل عالم الملك ..

ان منزلة النبوة التى نزلها آدم ، وهو فى طريق العـــودة من البعد ، لم تكن اول نبوة ، على الاطـلاق ، ولكنها كانت اول نبوة ناجحة .. وآدم نفسه ، على الارض ، قد كان مســـبوقا باوادم كثيرين .. فهو ليس اول آدم ، على الاطلاق ، ولكنه اول تجـربة نجحت ، من تجارب الاوادم الكثيرين .. ومعارضة الملائكة ، حين قالوا : « اتجعل فيها من يفسد فيها ، ويسفك الدماء ؟ » لم تكن على غير وجه من وجوه الصحة ، ولكنها كانت مبنية على تجربة محدودة مع بعض نماذج من سلالة الطين — مع بعض الاوادم — فلما ابان لهم الله كيف ان اطراد التحسين فى افراد هذه السلالة لا يقف عند حد ، وان النقص فى افرادها انما هو مرحلى ، اقتنعوا ، واذعنوا ، وسجدوا .. وكان الاوادم السابقون لآدم ابى البشر الحاضرين ، كلما وضعوا موضع الخـــلافة ، فانحطوا عنها ، عوقبوا بالوان

الاقصاء .. وكانت ظاهرة الاقصاء المتواترة ، الانقراض ، مع استخلاص افراد يكون لهم على معاصريهم ميزة ، ولكنها ميزة غير كافية لارساء التجربة المبتغاة ، فى الحكمة ، منهم .. ولنا فيما جرى لقوم نوح نموذج صريح ، مع ان هؤلاء قد جاءوا فى وقت متأخر كثيراً ..

ثم ان صور اقصاء الجلفاء ، المقصرين عن شأو الخلافة ، قد لطفت ، بمحض اللطف الالهى ، فلم تعد الانقراض الحسى ، وانما اصبحت فى صورة « السلب بعد العطاء » ، والسقوط من مقام القرب بالمعرفة بالله ، الى مقام البعد بالجهل بالله .. ولنا فى ذلك نموذج ، فيما قص الله علينا ، من خبر أحد العارفين ، من المتأخرين، وذلك حيث يقول ، تبارك من قائل : « واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها ، فاتبعه الشيطان ، فكان من الغاوين * ولو شئنا ، لرفعناه بها ، ولكنه اخلد الى الارض ، واتبع هواه ، فمثله كمثل الكلب ، ان تحمل عليه يلهث ، أو تتركه يلهث .. ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا .. فاقصص القصص ، لعلهم يتفكرون » هذه هى صورة الاقصاء ، التى سبقت زلة آدم .. ثم ان هذه الصورة نفسها قد لطفت ، بمحض اللطف الالهى ، فاصبحت ابعاداً مؤقتا ، تعقبه توبة ، ثم مغفرة ، ثم تقريب بعد ابعاد .. وهذا هو الذى جرى لآدم ، فأن اقصاءه الثانى لم يكن بعيداً وانما كان البعيد اقصاءه الاول ، وفى هذا جرى العتاب : « وناداهما ربهما الم انهكما عن تلكما الشجرة ؟ واقل لكما ان الشيطان لكما عدو مبين ؟ قالا ربنا ظلمنا انفسنا ، وان لم تغفر لنا وترحمنا ، لنكونن من الخاسرين » وهما انما قالا ذلك بالهام الله اياهما .. وهو تعالى لم يكن ليلهمهما الاستغفار الا وهو يريد ان يغفر لهما .. وقد فعل .. فكانت زلة آدم هنا موجبة لبعد قريب ، وقد عاد منه للقرب وكأن شيئا من البعد لم يكن .. ولنا فيما جرى لموسى ، وهو ليس بعيداً عن آدم ابيه ، مايدل على سرعة الرجعى بالمغفرة ، حين ييسر الله

الاستغفار من الذنب : « ودخل المدينة ، على حين غفلة من اهلها ، فوجد فيها رجلين يقتتلان ، هذا من شيعته ، وهذا من عدوه ، فاستغاثه الذى من شيعته ، على الذى من عدوه ، فوكزه موسى ، فقضى عليه ، قال هذا من عمل الشيطان ، انه عدو ، مضل ، مبين * قال رب ، انى ظلمت نفسى ، فاغفر لى ، فغفر له ، انه هو الغفور الرحيم * قال رب ، بما انعمت على ، فلن اكون ظهيرا للمجرمين » .. ثم لم يزل عقاب المخالفين ، من المصطفين ، يلطف ، بمحض اللطف الالهى ، حتى انتهى ، على عهد الحبيب الاعظم ، الى ان يقدم الله المغفرة قبل العتاب .. قال تعالى لحبيبه محمد : « عفا الله عنك ، لم اذنت لهم ، حتى يتبين لك الذين صدقوا ، وتعلم الكاذبين ؟ » ..

الدين قبيل آدم

آدم صاحب اول نبوة اكتملت فى الارض ، وهو ابو البشر الحاضرين ، كان اول من استقام على التوحيد ، فى جملة احواله ، وكان دين التوحيد قد اوحى اليه من الله بواسطة جبريل .. ولم تكن تلك اول مرة يتصل فيها جبريل بالبشر ليوحى اليهم ، فقد كانت له اتصالات بتجارب الاوادم الفاشلة ، التى سبقت التجربة الناجحة بآدم ابى البشر الحاضرين ..

ان ظهور آدم النبى .. آدم الخليفة ، آدم ابى البشر الحاضرين ، لم يؤرخ ظهور العقل البشرى ، وانما هو يؤرخ مرحلة من مراحل سير العقل البشرى الى النضج .. ولقد ظهر العقل البشرى قبل آدم هذا بزمن طويل .. والعقل البشرى هو الروح الالهى الذى نفخه الله فى البنية البشرية ، فاصبحت ، بفضله ، مشدودة الى الله ، بعد ان كانت ، قبلا ، مشدودة الى الارض بحكم الحيلة .. وعن نفخ الروح الالهى فى البشر قال تعالى : « واذ قال

ربك للملائكة انى خالق بشرا ، من صلصال ، من حما مسنون ❊ فاذا سويته ، ونفخت فيه من روحى ، فقعوا له ساجدين)) ..

ان من اهم العبارات التى حوتها هاتان الآيتان الكريمتان عبارة ((فاذا سويته)) ، فانها تشير الى اســتعداد المكان لنفخ الروح الالهى فيه ، وهذا الاستعداد قد استغرق زمنا هو من الطول بحيث يخطؤه التصور .. ويكفى ان نستحضر فى عقولنا ان الله ، سبحانه وتعالى ، سماه ((حيناً من الدهر)) . .قال تعالى : ((هل اتى على الانسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا ؟)) .. فانَ استعداد الانسان لنفخ الروح الالهى اســتغرق المرحلة الاولى ، من مراحل النشاة ، واستغرق المرحلة الثانية ، واســتغرق ، من المرحلة الثالثة ، طورا كبيرا .. ولم يكن نفخ الروح الالهى فى آدم الخليفة وحده ، وانما هو سار فى جميع ذرارى الوجود مسرى الارواح فى الاجساد ، ولكنه فى الانسان زاد فى المقدار ، وفى آدم الخليفة اطرد ازدياده اكثر من ذى قبل ، حتى رفعه الى درجة النبوة ، والخلافة ، وحفظه فيهما . ونفخ هذا الروح فى الانسان ، قبل آدم ابى البشر ، كان من قبيل اعداد المكان ، فى آدم ، لنفخ الروح الذى به النبوة ، والخلافة .. وعند نفخ الروح الالهى فى الانسان ، السابق لآدم ، وقع تمييزه على الحيوان ، ووقــع عليه بذلك تكليف العبادة ، فى مستوياتها البسيطة ، وكانت من ثم بداية الدين .. ولم يكن لهــذا الدين رسل غير بداءة العقول .. وكان وثنياً ، تعددياً ، ولكنه كان بداية الدين .. بداية الاسلام .. ولما جاء عهد الرسل ، الذى انفرع بظهور آدم ابى البشر ، لم تكن الحكمة وراء ارسال الرســل إن يخبروا الناس بان لهم خالقا ، فان ذلك قد سبقتهم عليه رســل العقول ، وانما كانت الحكمة من ارسالهم تعليم الناس طريق معرفة خالقهم ..

وفى مرحلة التطور العضوى الصرف اعد الله الانسان اعدادا

خاصا ، فهو لم يجعله قوياً ، قوة جسدية ، تغنيه عن الحيلة فى حل المشاكل التى تعترضه ، فى البيئة التى اوجـده فيها ، ولم يجعله رخواً ، خائرا ، لا يقوى على النهوض فى وجه التحـدى المعقول ، وانما جعله وسطا ، ذا قوة لا تغنى عن اصطناع الحيلة ، ولا تعجز عن تنفيذ خطة الحيلة ، فى كثير من الاوقات . ومن هذا الوزن الحكيم برز العقل ، واصبح الانسان يحتال بعقله ، وينفذ بعضله ، وقوة تركيبه البدنى .. وبهذه الممارسة دخلت مرحلة التطور العضوى — العقلى فى المسرح ..

وخلق الله آدم على صورته ، تبارك ، وتعالى ، وخلق الكون كله على صورة آدم .. وخلق الله آدم له ، تبارك وتعالى ، وخلق الكون كله لآدم ، ونفخ الله روحه فى آدم ، ونفخ روح آدم فى الكون .. وكان نفخ روح الله فى آدم فى قمة ، ونفخه فى الكون فى قاعدة .. والنفخ كله مستمر ، ولكنه يتصعد فى طريق لولبى ، يدور على نفسه دورة كاملة كلما رقى سبع درجات من درجات تصـــعيده ، وتعلو نقطة نهاية الدورة فوق نقطة بدايتها سمتاً ، به تكون قفزة فى الترقى نحو الله .. ويدور هذا الطريق اللولبى حول مركز ينضم نحوه كلما صعد درجة .. فاذا ما انتهت دورة هذا النفخ فى الدرجة السابعة ، بدأت من جديد ، واتخذت درجـة النهاية هذه نقطة بداية للدورة الجديدة ، وهكذا دواليك ، الى نهاية السرمد — وليس للسرمد نهاية — فيكون ، بذلك ، النفخ غير متناه ..

وعن نفخ الروح الالهى فى البنية البشرية بهذه الاطوار السبعة يحدثنا تبارك وتعالى فيقول : ((لقد خلقنا الانسان من ســلالة من طين * ثم جعلناه نطفة فى قـــرار مكين * ثم خلقنا النطفة علقة ، فخلقنا العلقة مضغة ، فخلقنا المضـــغة عظاما ، فكسونا العظام لحما ، ثم انشاناه خلقا آخر ، فتبارك الله ، احسن الخالقين)) ..

وعن نفخ الروح ، فى بنية الكون ، بهذه الاطوار السبعة ايضا يحدثنا ، تبارك وتعـــالى ، فيقول : ((ان ربكم الله الذى خلق

السموات ، والارض ، فى ستة ايام ، ثم اســتوى على العرش ، يغشى الليل النهار ، يطلبه حثيثا ، والشمس ، والقمر ، والنجوم ، مســـخرات بامره ، الا له الخلق ، والامــر ، تبارك الله ، رب العالمين)) .

وهو عندما قال : ((ثم استوى على العرش)) انما ذكر الطــور السابع من اطوار النفخ ..

السلالة ما استل من الشىء ، وهو ما استخرج برفق ، وفى اناة ، وهو الخلاصة .. وهى ايضا تعنى النسل ، وتعنى الولد .. تقول : هو سلالة طيبة ، أو تقول : هو من سلالة طيبة .. ولقد اســتغرق استلال هذه السلالة من الطين زمنا سحيقا ، كما اسلفنا الى ذلك الاشارة ..

وبعد اتمام استلال هذه السلالة ، واستعداد المحل لنفخ الروح الالهى ــ وذلك بظهور الحيوانات العليا ــ ظهر ، بفضـــل الله ، الانسان . واستمر تناســله ، وزيادته ، من يومئذ ، بالتقاء ذكره بانثاه ، واصبحت ((النطفة الامشـــاج)) هنا ، تعنى ماء الرجل المخلوط ، فى الرحم ، ببويضــة المراة .. فذلك قوله ((ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين)) .. وقوله ((ثم انشأناه خلقا آخر)) ، بعد ان ذكر اطوار التكوين المختلفة فى الرحم ، يعنى ظهور النشأة السوية التى يختلف فيها الانسان عن الحيوان ، ظاهراً ، وباطناً .. وظهور هذه النشأة انما يكون بقفزة تمثل حصيلة التنقل فى المراقى ، التى استجمعت فى الاطوار الستة السابقة ، كما سلفت الى ذلك الاشارة .. وفى جميع هذه الاطوار ، النفخ الالهى مستمر ، لا يتوقف ، ولن يتوقف ، يد الدهر ..

وعن نفخ الروح فى بنية الكون فى الايام السبعة ، تحدثنا التوراة ايضا فتقول : ((فاكملت الســموات والارض وكل جندها . وفرغ الله فى اليوم السابع من عمله الذى عمل فاستراح فى اليوم السابع

من جميع عمله الذى عمل . وبارك الله اليوم السابع وقدسه .. لانه فيه استراح من جميع عمله الذى عمل الله خالقاً » ووصف الله هنا بالحاجة للراحة ، بعد العمل ، ضرب من تصوره على صورتنا .. وتلك مرحلة ضرورية ، من مراحل تطور معرفة الانسان بالله ، وهى مرحلة تعتبر كاملة اذا ماقورنت بالمراحل التى سبقتها، وانما يظهر نقصها عند مقارنتها بالصور اللاحقة ، من صور المعرفة بالله ، وذلك حين تقدم الفكر البشرى ، وارتقى ..

وفى هذا الباب يجىء تعبير القرآن ، فى الرد على تعبير التوراة ، فيقول جل من قائل : « ولقد خلقنا السموات والارض ، وما بينهما ، فى ستة ايام ، وما مسنا من لغوب » وهذا بالطبع تصور بالله اليق ، وادخل فى المعرفة ، من تعبير التوراة .. ومع ذلك فان عبارة التوراة : « فاستراح فى اليوم السابع من جميع عمله الذى عمل » ليست عبثا .. وهى قد جاءت فى مقابلة « ثم استوى على العرش » من عبارة القرآن .. وفى مقابلة « ثم انشأناه خلقا آخر » من عبارة القرآن ايضا .. وكل هذه العبارات ، على تفاوت ، تشير الى تتويج الخليقة ، بعد الطور السادس ، بظهور الخليفة — الانسان الكامل — وبظهور الانسان الكامل تنتهى المعاناة ، وينتهى الشقاء ، وتتم الطمأنينة بالقرب وبالسلام ..

وليست ايام الله كأيامنا ، وانما هى اطوار تجلياته ، وظهوره لخلقه ، بخلقه .. اعنى ظهور امره (والامر باطن) ، فى خلقه (والخلق ظاهر) ،لخلقه ، وهم اصحاب العقول — البشر — وهو ، تبارك وتعالى ، يعنى هذا حين قال ، من الآية السابقة ، : « ثم استوى على العرش ، يغشى الليل النهار ، يطلبه حثيثا ، والشمس ، والقمر ، والنجوم ، مسخرات بامره ، الا له الخلق ، والامر ، تبارك الله ، رب العالمين » .. فالعرش يعنى المخلوقات ، بما فيها الارواح المشرقة ، اللطيفة ، وهو عالم الخلق ، وقد عبر عنه بالليل والنهار ، والشمس ، والقمر ، والنجوم .. واشار بالليل والنهار

الى الارض ، (كما اشار بهما الى الحركة ، والى الزمن) ، لانهما من اوضاعها من الشمس .. وعبارة « ثم استوى على العرش » تشير الى استيلاء القهر الارادى على نواصي المخلوقات .. وقد ابان ذلك بقوله « مسخرات بامره » وذلك عالم الامر .. والامر مستول على الخلق .. ولله ، تبارك وتعالى ، الخلق والأمر ..

وهذا الاستيلاء هو نفخ الروح الالهى فى الكون ، وقد وقع على سبع درجات ، عبر عنها بسبعة ايام ..

ثم ان الله ، تبارك وتعالى ، سخر الكون لنفخ الروح الالهى فى الانسان ، وذلك باغراء العداوة بين الاحياء فيما بينهم ، من طرف ، وبين الاحياء والعناصر الاخرى ، من طرف آخر .. فقال « ان من ازواجكم ، واولادكم ، عدوا لكم ، فاحذروهم » .. وقال « ان الشيطان لكم عدو ، فاتخذوه عدوا » وكذلك خلق الانسان وسط العداوات .. « لقد خلقنا الانسان فى كبد » ثم كان عليه ان يسعى للمصالحة ، والمسالمة ، والمحبة .. من أجل حياته ..

ولما كان الانسان الأول قد وجد نفسه ، فى البيئة الطبيعية التى خلقه الله فيها ، محاطا بالعداوات من جميع اقطاره ، ولما كان الله قد سواه وسطا ، فلا هو بالقوى ، الذى يستغنى بقوة عضلاته عن استعمال حيلته . فى حل مشاكله ، ولا هو بالضعيف ، الرخو ، الخائر ، الذى لا ينهض لأى مستوى ، من مستويات تحدى الاعداء فانه قد سار فى طريق « الفكر والعمل » ، من أجل الاحتفاظ بحياته وقد هداه الله بعقله ، وقلبه ، الى تقسيم القوى التى تحيط به ، الى : اصدقاء ، والى اعداء .. ثم قسم الاعداء الى اعداء يطيقهم ، وتنالهم قدرته . والى اعداء يفوقون طوقه ، ويعجزون قدرته .. وكذلك قسم الاصدقاء الى : اصدقاء يبادلهم ودا ، بود ، وخدمة ، بخدمة ، والى اصدقاء يغمرونه بالطاف النعم ، ويغدقون عليه اصناف البر ، وهو عاجز عن مكافاتهم على

صنيعهم هذا به ، لأنهم اقوياء ، وهو ضعيف ، ولانهم اغنياء ، وهو فقير ، وقد زادت قوتهم ، واستغناؤهم ، عن حدود تصوره ، فلزم العجز ، واستشعر الشكر .. ولقد هدته هذه النظرة طريقه فى الحياة : فاما الاعداء الذين يطيقهم ، وتنالهم قدرته ، مثل الحيوان المفترس ، والانسان العدو ، فقد عمد فى امرهم ، الى المنازلة ، والمصاولة ، والمراوغة ، فاتخذ ، من أجل ذلك ، الآلة ، يمد بها قوته ، ويعوض بها عن الانياب ، والمخالب ، التى لم تعد من طبيعة تكوينه ، كما لجأ الى الحيلة ، فاتخذ المساكن فوق الاشجار ، وفى الكهوف ، وعلى قنن الجبال .. ومن محاولاته فى هذا الاتجاه نشأ العلم التجريبى الذى وصل ، فى القرن العشرين، الى فلق الذرة ..

واما الاصدقاء الذين استطاع ان يبادلهم نفعا ، بنفع ، ومعاملة ، بمعاملة ، فقد هدته صداقتهم الى العيش معهم فى جماعات اكبر من تلك التى يعيش فيها الحيوان ، مما ساق الى التفكير فى رعاية مصالح الآخرين . وبدأ ، بهذا الاتجاه ، نظام المجتمع ، وتادى ذلك الى نشأة العرف ، والعادة ، والتقليد ، التى هى مقدمات القوانين والتشاريع ..

واما الاصدقاء الكبار ، والاعداء الكبار ، فقد هدته حيلته الى التزلف اليهم ، بتقريب القرابين ، وباظهارالخضوع ، وبالتمليق .. فاما الاصدقاء فبدافع من الرجاء ، واما الاعداء فبدافع من الخوف .. وبدات ، من يومئذ ، مراسيم العبادة .. ونشا ، من يومئذ ، الدين ..

لعمرى !! ليس الأمر بهذا اليسر .. ولكن هذه مجرد العبارة ، وهى عبارة قد اضطررنا الى الايجاز فيها ، اشد الايجاز .. وهى ، من اجل ذلك ، ولغير ذلك ايضا ، عبارة جانبية ، ومعممة ، ومخلة بالصورة .. وعذرنا عنها اننا لا نملك فى المقام الحاضر خيرا منها ..

العقل الواعي والعقل الباطن

قلنا ان العقل هو الروح الالهى المنفوخ فى البنية البشرية ، وقلنا ان النفخ يعنى الاستيلاء الارادى القاهر على العناصر ، والأحياء .. وهو ، فى مرحلة الاحياء ، انما كان باغراء العداوة بين الاحيـــاء فيمابينهم ، وبينهم وبين جميع العناصر التى تزخر بها البيئة الطبيعية التى يعيشون فيها .. وهذا التعميم يخضع لبعض الاستثناء . فان هناك بعض القوى ، وبعض العناصر ، امكن وضعها فى جانب الصداقة ، ومع ذلك ، فان جانبها لم يكن مأمونا ، كل الامـان ، والخوف من تصرفاتها ، وبدواتها ، لم يزل موجودا ، مما جعـل الخوف هو العنصر الغالب فى مشاعر الاحياء .. وفى الحق ، ان الخوف (القهر) هو الذى أستل المادة العضـوية من المادة غـير العضوية ، فبرزت بذلك الحياة .. ثم ان الخوف هو السوط الذى حشد الاحياء فى زحمة سباق التطور .. فالحياة مولودة فى مهد الخوف .. ومكتنفة بالخوف فى جميع مدارجها .. ولولا بوارق الامان ، الفينة بعد الفينة ، ولولا لوائح اللطف ، الفينة بعد الفينة ، ولولا غواشى الغفلة ، فى اغلب الاحيان ، لأجتاح الخوف الحياة ، ولقطع نياطها .. ولايزال الخوف ، الى الآن ، هو الاصل فى سوق الحياة الى كمالها فى جانب الله .. قال تعالى فى ذلك : ((وان من قرية الا نحن مهلكوها ، قبل يوم القيامة ، أو معـذبوها عذابا شديدا ، كان ذلك فى الكتاب مسطورا ❊ وما منعنا ان نرسـل بالآيات الا أن كذب بها الاولون .. وآتينا ثمـود الناقة مبصرة ، فظلموا بها ، وما نرسل بالآيات الا تخويفا ❊ واذ قلنا لك ان ربك أحاط بالناس .. وما جعلنا الرؤيا التى أريناك الا فتنة للناس .. والشجرة الملعونة فى القرآن .. ونخوفهم ، فما يزيدهم الا طغيانا كبيرا)) .. اعتبر قوله تعالى : ((وما نرسل بالآيات الا تخـويفا))

وقوله تعالى : ((ونخوفهم)) .. ثم اقرأ قوله تعالى : ((يأيها الناس اتقوا ربكم ، ان زلزلة الساعة شيء عظيم * يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما ارضعت ، وتضع كل ذات حمل حملها ، وترى الناس سكارى ، وما هم بسكارى ، ولكن عذاب الله شديد)) .. أو اقرأ قوله تعالى : ((فكيف تتقون ، ان كفرتم ، يوما يجعل الولدان شيبا ، * السماء منفطر به ؟ كان وعده مفعولا .)) .. وخير حالات المؤمن ان يعمل الطاعات وقلبه خائف من لقاء ربه ، قال تعالى : ((والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة انهم الى ربهم راجعون)) .. وخير حالات الخوف ان يكون موزونا بالرجاء ، فلا يستبد فيتداعى الى اليأس ، ولا يضعف فيتداعى الى الغفلة .. وفي وزن الخوف والرجاء قال تعالى : ((اولئك الذين يدعون يبتغون الى ربهم الوسيلة ، أيهم اقرب ، ويرجون رحمته ، ويخافون عذابه .. ان عذاب ربك كان محذورا)) وقال ايضا : ((أمن هو قانت ، آناء الليل ، ساجدا وقائما ، يحذر الآخرة ، ويرجو رحمة ربه ؟ قل هل يستوى الذين يعلمون ، والذين لا يعلمون ؟ انما يتذكر أولو الالباب .)) فهذه الحالة هي من حالات العلم بالله .. والحكمة وراء الخوف ، والتخويف ، انما هي سوق الناس الى الله حين يظهر لهم عجزهم عن النهوض باعباء حياتهم : اقرأ صورة لكل الذى ذكرنا ، في الآيات ، البينات ، التاليات : ((وانك لتدعوهم الى سراط مستقيم * وان الذين لا يؤمنون بالآخرة عن السراط لناكبون * ولو رحمناهم ، وكشفنا ما بهم من ضر ، للجوا فى طغيانهم يعمهون * ولقد اخذناهم بالعذاب ، فما استكانوا لربهم ، وما يتضرعون * حتى اذا فتحنا عليهم بابا ذا عذاب شديد اذا هم فيه مبلسون * وهو الذى انشأ لكم السمع ، والأبصار ، والافئدة . قليلا ماتشكرون * وهو الذى ذرأكم فى الأرض ، واليه

تحشرون * وهو الذى يحيى ويميت ، وله اختلاف الليل ، والنهار . أفلا تعقلون » .. هذه جميعها صور للخوف ، والتخويف بالعذاب فى الدنيا ، وبوعيد العذاب فى الساعة ، وفى الاخرى .. وهذا فى الاسلام ، وفى القرآن ، وهو لم يجىءالا مؤخرا ، وبعد ان لطف حس الناس، واصبحوا يزدجرون باقل مزدجر !! ولقد ذكرنا ، تبارك وتعالى ، فى هذا السياق الرهيب ، بالسمع ، والابصار ، والافئدة ، فقال : « وهو الذى انشا لكم السمع ، والابصار ، والافئدة . قليلا ماتشكرون » وفيه اشارة الى انه تعالى انما انشاهابالعذاب ، وبالخوف من العذاب ، وبالتخويف منه، كل على كل مستوى ، من مستويات الحياة ..

ولقد قال : « قليلا ماتشكرون » ونحن انما نفهم هذا القول فهما جيدا اذا تذكرنا قوله تعالى : « ما يفعل الله بعذابكم ، ان شكرتم ، وآمنتم ؟ وكان الله شاكرا عليما » .. فكانه قال : ان الحكمة وراء العذاب ان الله يريد به ان يمخض ، من كثافتكم ، الرقائق التى بها يظهرشبهكم اياه ، فتكونوا شاكرين وعالمين ، كماهو شاكر وعليم.. ثم ان الله ، تبارك وتعالى ، يقول ، فى الآيات السابقات : « وهو الذى ذراكم فى الأرض ، واليه تحشرون » .. ذراكم بثكم ، وشتتكم ، كماتشتت البذرة « واليه تحشرون » تجمعون ، وتساقون ، وتزفون .. وانما يكون حشرنا اليه بتقريب صفاتنا من صفاته ، وذلك باستخراج لطائفنا من كثائفنا بالعذاب ، وبالخوف ، وبالتخويف من العذاب .. ثم انه قال ، وههنا ملاك الامر ، قال : « وهو الذى يحيى ، ويميت ، وله اختلاف الليل ، والنهار . افلا تعقلون ؟ » .. « يحيى ويميت » اشارة الى قهر الحياة .. و « اختلاف الليل والنهار » اشارة الى قهر العناصر .. ومن قهر العناصر برزت الحياة .. ومن قهرالحياة برزت العقول.. ولذلك قال تعالى : « افلا تعقلون » . . ومن جراء القهر ولد الخوف ، ومن جراء الخوف ولدت الحياة ، وسارت محفوزة فى

المراقى ، سمتنا فوق سمت ، الى ان بلغت مرتبة ظهور العقل البشرى فى أعلى الحيوانات .. وهى لاتزال تطرد ، تطلب مراتب كمالات العقل والقلب ..

فالعقل هو الروح الالهى المنفوخ فى الانسان ، والخوف هو وسيط النفخ ، وصراع العناصر المختلفة ، التى تزخر بها البيئة الطبيعية ، هو العامل المباشر ، والله من وراء كل اولئك محيط .. وهذا النفخ مستمر ، وهو سرمدى ، ويأخذ فى اللطف كلما برزت لطائف الحياة من كثائفها ، وكان لها السلطان .. وسيجىء يوم يبدل الله فيه الخوف أمنا ، والحرب سلاما ، والعداوة محبة .. «مايفعل الله بعذابكم ان شكرتم وآمنتم ؟ وكان الله شاكرا عليما ؟»

واين نفخ الروح الالهى ؟ هل نفخ فى الاجساد ؟ ام هل نفخ فى العقول ؟ لا هنا ولا هناك .. فليس الجسد مكان النفخ ، وانما هو نتيجة النفخ .. ومثل هذا يقال عن العقل .. فليس الدماغ ، وهو عضو العقل ، مكان النفخ ، وانما هو نتيجة النفخ .. فالنفخ متقدم عليهما ، كما يتقدم السبب النتيجة ..

فاين كان النفخ اذن ؟

الجواب ، فى القلب !!! وما هو القلب ؟ هو ذات الحى !! هو الحى بالاصالة ، حين لايكون الجسد ، ولا الدماغ ، حيين الا بالحوالة ..

هو الحى الذى اعطى الجسد والدماغ الحياة ، وهو ليس خادمهما ، وانما هو سيدهما .. وقد اخطأ علم الطب الحديث — علم وظائف الاعضاء — حين ظنه مجرد مضخة للدم .. والامر كما هو عليه فى الدين .. ففى الحديث : « الا ان فى الجسد مضغة ، اذا صلحت صلح سائر الجسد ، واذا فسدت فسد سائره .. الا

وهى القلب » وليس المقصود بالفساد هنا الفساد الحسى الذى ينتج عنه الموت الحسى ، فحسب ، وانما المقصود الفساد المعنوى الذى ينتج عنه الموت المعنوى ــ الكفر ــ

وفى القرآن التركيز كله على القلب ، ولا يجىء ذكر العقل ــ الدماغ والجسد ــ الا فى المكان الثانى .. قال تعالى « ان فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب ، أو ألقى السمع ، وهو شهيد » فالذكرى فى المكان الأول لصاحب القلب الذكى ، « لمن كان له قلب » وجاء به على التنكير ليفيد التعظيم .. فان لم يكن ، فلصاحب العقل الواعى : « أو ألقى السمع ، وهو شهيد » .. « ألقى السمع » يعنى اعار الأذن ، وتلك اشارة الى العضو المحسوس ، وهى ، من ثم ، اشارة الى الجسد .. «وهو شهيد » يعنى غير شارد الذهن وقت الاستماع ، وتلك اشارة الى حصر القوى التى تعمل فى الدماغ ــ الى العقل ــ والآيات التى تركز على القلب فى المكان الأول ، مستفيضة فى القرآن ، ونحن لانستطيع ، كما اننا لانحتاج ، الى متابعتها هنا ، فليراجعها من شاء فى مظانها .. وانما نريد هنا ان نورد ثلاث آيات ، هن آية فى الدلالة على المكانة التى يحتلها قلب الانسان ، من الانسان .. قال تعالى على لسان ابراهيم الخليل : « ولاتخزنى يوم يبعثون ❊ يوم لاينفع مال ، ولابنون ❊ الا من اتى الله بقلب سليم » ففى آخر المطاف لا منجاة من عذاب الخزى ، ولا من خزى العذاب ، الا بسلامة القلب ..

وهل يزيد فى توكيد كرامة القلب لو قلنا ان لكل مخلوق قلبا ، وليس لكل مخلوق عقل ؟؟ فانه لم يعرف شىء من الكائنات ، مهما صغر حجمه ، وخف وزنه ، ليس له قلب .. ومع القلب الجسد ، فانهما كان قد نشأ فى وقت واحد .. فالجسد بيت القلب ، وهو من ثم صنوه ، وزوجه ، وهو المعنى بقوله تعالى : « سبحان الذى

خلق الازواج كلها ، مما تنبت الأرض ، ومن انفسهم ، ومما لا يعلمون)) .. فالاشارة فى ((من انفسهم)) الى القلب والجسد .. وفى حين ان الجسد بيت القلب ، فان القلب بيت الرب .. وهو ، من ثم ، زوج الرب .. والى ذلك الاشارة بقوله تعالى : ((ومما لا يعلمون)) ...

والحواس انما هى نوافذ البيت التى تدخل النور ، والهواء الطلق للساكن ، وبها ، ومنها ، يطل الساكن ، ايضا ، على العوالم الخارجية .. والعقل ، وهو امير الحواس ، انما هو ((ديدبان)) القلب ، وحارسه الأمين ، يؤذنه بقرب الخطر ، ويدفع عنه الخطر ، حيث امكن ..

والقلب هو بيت الله ، هو الحرم الآمن ، الذى قال تعالى عنه : ((ليكفروا بما آتيناهم ، وليتمتعوا ، فسوف يعلمون * اولم يروا انا جعلنا حرما آمنا ، ويتخطف الناس من حولهم ؟ افبالباطل يؤمنون ، وبنعمة الله يكفرون ؟)) فالكعبة ، فى مكة ، هى بيت الله ، فى ظاهر الشرع ، والقلب ، فى الصدر ، هو بيت الله ، فى الحقيقة .. وقد جعل الله بيتيه آمنين من الخوف .. قال تعالى ، فى حق قريش : ((لأيلاف قريش * ايلافهم رحلةالشتاءوالصيف* فليعبدوا رب هذا البيت * الذى اطعمهم من جوع ، وآمنهم من خوف)) فالقلب ، فى سويدائه ، حرم آمن من الخوف ، ولا يلم الخوف الا بحواشيه ، فذلك قوله : ((اناجعلنا حرماآمنا ، ويتخطف الناس من حولهم)) .. ولقد سبق لنا ان قررنا ان الله ، تبارك وتعالى ، قد نفخ الروح الالهى بوسيلة الخوف .. وقررنا ان مكان نفخ الروح الالهى انما هو القلب .. وقررنا ، فيما سلف ، ان القلب حرم آمن من الخوف .. ولذلك فقد فداه الله بالجسد ، وجعله على حواشيه ، ليكون له ردءاً ، ودرعا ، من الخوف ، وهذا هو السبب فى نشوء الجسد فى وقت يكاد يكون واحداً مع وقت نشوء

القلب .. ثم لحق بهما العقل ، ليكون عونا على الانتصـــار على الخوف .. وحين يتم الانتصـــار على الخوف ، بفضل الله ، ثم بفضل العقل ، يصبح نفخ الروح الالهى فى القلب البشرى بوسيلة اللطف ، بالأمن ، وبالسلام ، وبالمحبة .. فمادام النفخ من الخارج فانه بوسيلة الخوف الذى تسلطه العناصر الخارجية ، وسيجىء وقت يصير فيه النفخ من الداخل ، ويومئذ يكون الخوف قـــد انهزم ، والى الابد .. والله ، تبارك وتعـــالى ، يقول ، فى أمر النفخ ، فى مرحلتيه ، : ((ســـنريهم آياتنا فى الآفاق ، وفى انفسهم ، حتى يتبين لهم انه الحق ، اولم يكف بربك انه على كل شىء شهيد ؟)) .. ((سنريهم آياتنا فى الآفاق)) اشارة الى نفخ العناصر بالقهر الإرادي فى الجسد .. قوله : ((وفى انفســـهم)) اشارة الى نفخ العناصر بوسيلة الخوف ، فى الجســـد ، وفى الدماغ ، أو قل العقل ، .. قوله : ((حتى يتبين لهم انه الحق)) .. يعنى حتى يصل بهم الادراك الى استيقان التوحيد ، ويومئذ ينهزم الخوف ، ويجىء دور الأمن ، والسلام .. والى ذلك اشار بقوله تعالى : ((أولم يكف بربك انه على كل شىء شهيد ؟)) ..

والقلب عضـــو يعمل فيه الفؤاد ، والفؤاد هو قـــوة الادراك الوترى .. والجسد والدماغ عضوان يعمل فيهما العقل ، والعقل هو قوة الادراك الشفعى .. وفى مرحلة الادراك الشـــفعى يكون النفخ من الخارج ، والخوف هنا حاضر ..

وفى مرحلة الادراك الوترى يكون النفخ من الداخل ، .. ((اولم يكف بربك انه على كل شىء شهيد ؟)) .. ههنا مقام نفخ الذات فى الذات .. نفـــخ الذات الالهية فى القلب البشرى .. وليس للخوف ههنا مجال ..

وفى الادراك الوترى ينقطع التعـــدد ولا يبقى غير الوحدة ..

فالمدرك ، والادراك ، والشيء المدرك ، جميعها شيء واحد ، ولذلك فان القلب هو عين الفؤاد ..

ماهو العقل الباطن ؟ هو القلب ، وهو قوة الادراك الوترى ..
ما هو العقل الواعى ؟ هـو العقل ، وهو قوة الادراك الشفعى ..

العقل الواعى ، وكيف نشــــأ ؟

نشأ العقل الواعى على مرحلتين : مرحلة قانون الغابة ، ومرحلة قانون العــــدل ..

فأما مرحلة قانون الغابة فقد تحدثنا عن طرف منها فى حديثنا عن الخوف ، وسنكتفى بما قد جرى ذكره .. لاسيما وان هذه المقدمة قد طالت ، وهى ، على كل حال ، ليست مكانا للاستقصاء والتفصيل ..

واما مرحلة قانون العدل فانها تؤرخ بدء العقل البشرى ، وبدء المجتمع البشرى .. وبدء الدين .. وبدء العرف الذى هو اصـل القوانين جميعها ..

لقد قلنا ان الله تبارك وتعالى قد جعل سلالة الانسان وسطا ، فهو لم يجعله قويا يستغنى عن الحيلة بقوة عضـــلاته فى حـل مشاكله ، وهو لم يجعله ضعيفا ، رخوا ، لا ينهض لأى من اعدائه وقلنا انه ، تبارك وتعالى ، بهذه الحكمة ، الحكيمة ، قد هداه طريق « الفكر والعمل » معا .. فهو يفكر ، وينفذ ، وبذلك اصبح طريق تطوره يختلف ، فى ظاهره ، عن طريق تطورالحيوانات ، والحشرات الاخرى .. وهو ، فى مراحله الباكرة ، قد اهتدى الى الدين ، والى .. المجتمع ، وهذان امران ليس هنـــاك ماهو اعظم منهما نفعا .. وقد اتفق لنا ان تحدثنا عن نشأة المجتمع ، فى كتابنا : « الرسالة الثانية من الاسلام » فليراجعه من شــــاء من القراء الكـرام ..

وفى مرحلة قانون الغابة كان الخوف مســـيطرا على المسرح ،

سيطرة تامة .. فليس هناك غير الصيد والصياد .. والصياد نفسه هو صيد لصياد اكبر منه .. وقد رسخت هذه الفترة الخوف فى نفس الانسان ، واضطرته ليبحث عن الأمن فى الكثرة التى من فصيلته ، والتى من فصيلة الحيوانات المستضعفة التى تكون ، فى الغالب الاعم ، فريسة لذوات المخالب الحمر ، والانياب الزرق .. وكذلك انشأ المجتمع ، والف الحيوان الاليف .. وقد اقتضت معيشته فى الجماعة ان يتنازل ، طائعا ، أو مكرها ، عن قسط كبير من حريته .. ذلك بانك لا تستطيع ان تعيش فى اية جماعة بشرية بغير ان تراعى حدودا معينة ، تقيد تصرفاتك بفعل ما لا ينضر به الآخرون .. ومن هذه الحدود المعينة نشأ القانون فيما بعد .. واغلب الظن ان أول هذه الحدود انصب على تنظيم الغريزة الجنسية .. ذلك بان الغيرة الجنسية امر مشترك بين الحيوان والانسان .. وقل ان تجد حيوانا ، أو طائرا ، لايغار على انثاه .. وقد دخلت هذه الصفة الحميدة مع الانسان عهد كرامته الجديد ..

ونعتقد ان ثانى هذه الحدود أنصب على رعاية الملكية الخاصة ، وحمايتها ..

وبفضل حماية الزوجة ، وحماية الملكية الخاصة ، أصبح المجتمع البشرى ممكنا ..

ولم يكن الامر بهذا اليسر .. فقد كان من أصعب الاشياء على الانسان البدائى ان يقيد نفسه ، ويسيطر على نزواته .. وكان من أصعب الاشياء ، أيضا ، على المجتمع ان ينفذ العقوبة على المخالف لقواعد السلوك ، وللعرف الذى درجت الاجيال على رعايته ..

ونشأت فكرة الآلهة ، وفكرة الدين ، فى مطلع هذه المرحلة .. ومع فكرة الدين نشأت العقيدة فى الحياة الاخرى ، بصورة من

الصور ، ومايجرى فيها من خوف ، او امن ، ينبنى على فعل الخير ـ رعاية العرف ـ او فعل الشر ـ مخالفة العرف ـ فى هذه الحياة ..

ووصفت الآلهة بكل الصفات التى تجعلها رهيبة ، وتجعلها قادرة ، وتجعلها مطلعة على افعال الانسان .. وقسمت الى من يصادق ، ويعين ، ويرعى من يفعل الخير ، فيطعمه من جوع ، ويؤمنه من الخوف .. والى من يستحوذ على من يفعل الشر ، فيخذله ، ويسلمه الى متاهات الظلام المخوف ..

وكانت عقوبات القتل الذريع توقع على اقل مخالفة من مخالفات العرف المرعى ، ولم يكن الفرد مهما فى بدء المجتمع ؛ وانما كانت الاهمية ، كلها ، للمجتمع .. وذلك ، فى وقته ، كان أمرا حكيما ، غاية الحكمة ، لأمرين ، اولهما : ان المجتمع ، يومئذ ، قد كان ناشئا ، وحديثا ، فهو قد كان فى اشد الحاجة الى تمام الرعاية لقواعد نشأته .. وثانيهما : ان الفرد البشرى قد كان حيوانى النزعة ، غليظا كثيفا ، يحتاج العنف العنيف ، لتقوى سيطرته على نزواته ، وبدواته ..

فكأن العرف الاول ، بغير تدبير واع من آباء الاسر ـ وهم قد كانوا نواة الحكومة الاولى ـ قد كان حكيما ، موزونا ، يرعى مصلحة الفرد ، ويرعى مصلحة الجماعة ، فى آن معا .. وفى هذا تظهر حكمة الحكيم الذى سير الحياة فى العهود السحيقة ، من بؤرة هوانها ، وذلها ، الى منازل شرفها ، وعزها .

وقد كان الفرد البشرى ، حتى فى هذه المرحلة ، يعيش وسط الخوف .. بيد ان امرا هاما قد طرا على حياته ، وهو انه قد أصبح يستطيع ان يعيش فى امن ، بالقدر الذى يتفق مع تلك الفترة الرهيبة ، اذا ما اخلص للجماعة ، واجتنب مخالفة العرف الذى ترعاه .. ليس فقط يعيش فى امن .. بل إنه لينعم بصداقة

الآلهة ، وصداقة الارواح الخيرة ، التى ترف باجنحتها عليه ، وصداقة الخيرين من ابناء ، وبنات ، الاسر التى تكون الجماعة ..

وهكذا ، بدافع من الرهبة والرغبة ، اخذ يبرز الذكاء الـذى يميز بين مايليق ، ومالا يليق ، واخـذت تبرز الارادة التى تروض الشهوة الفطرية ، لتسوقها فى طريق الواجب .. وذلك برفض اللذة العاجلة ، ايثاراً للذة الآجلة ، التى قد تكون فى كنف الآلهة ، فى هذه الحياة ، أو فى الحياة المقبلة بعد الموت ، او قـد تكون فى رضا الجماعة ، وتقديرها ، وثنائها المستطاب ..

فمن الاحتكاك بين اللذة الحاضرة ، والواجب المرعى برز الذكاء للتمييز ، وبرزت الارادة للتنفيذ .. وهـذه هى بداية العقل البشرى ، لأن به دخلت القيمة فى وجود الانسان ، ولان به تجدد اعتبار المستقبل ، وبدأ جولان الخيال فى شعابه ، وانسراحه فى غيوبه .. وبهذا المستوى من العقل البشرى بدأ الدين الخاص ، واخذ يستصفى من الدين العام ، كما تستصفى حرارة الشمس ماء الانهار العذب من مياه البحر الملح ..

لقد قلنا ، آنفا ، ان الروح الالهى المنفوخ فى البنية البشرية هو العقل .. وقلنا ان الله نفخه فيه بوسيلة الخوف الذى نتج عـن اغراء العداوة بين الاحياء فيما بينهم ، وبين الاحياء والعناصر التى تزخر بها البيئة الطبيعية التى أوجد الله فيها الحياة .. ونقول الآن ان مرحلة بروز العقل البشرى ، فى البشر ، تؤرخ تحـولا جوهريا فى طريقة نفخ الروح الالهى ، وذلك ان الطريق قد انفتح أمام الانسان ، بفضل الله ، ثم بفضل العلم ، ليكون بمفازة مـن عذاب الخوف ان هو اتبع الواجب الذى ترسمه الحكمة .. وذلك بمراغمة هوى نفسه .. وهو لم يترك فى حيرة من امر الواجب .. فقد تولى الله هدايته ، فارسل رسل الانوار ـ الملائكة ـ لتمد بدائه العقول ، التى نشات فى الظلام ، باسـباب القدرة على

صحة الادراك . . وهو تبارك وتعالى يقول : ((وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا)) والرسل الاولى رسل العناصر التى ابرزت ، بالخوف ، الجسد من القلب .. ثم ابرزت ، بالخوف أيضا ، الحواس من الجسد .. ثم ابرزت بالخوف ايضا ، العقل من الحواس .. والرسل الثانية رسل العقول الى كل فرد بشرى .. والرسل الثالثة رسل عقول الحكماء ، والأذكياء ، والمجربين ، الى عقول أهل الغرارة والسذاجة .. والرسل الرابعة رسل الملائكة الاطهار ، تتصل بالبشر المؤهلين ، لتسوقهم ، ولتسوق بهم ، الى طريق الحكمة ، والصلاح ، الذى به يكون العتق من الخوف ، ومن الضلال الذى يوجب الخوف .. قال تعالى : ((الذين آمنوا ، ولم يلبسوا ايمانهم بظلم ، أولئك لهم الأمن ، وهم مهتدون)) والرسل الخامسة ، اذن ، رسل البشر المكرمين ، الى بقية البشر المكلفين .. ياتونهم ببينات السماء ، عن طرائق الوحى الأمين .. والرسل السادسة رسل العقول المرتاضة بادب الحق ، وبادب الحقيقة ، الى القلوب التى وسعت كل شيء ، لانها بيت المطلق .. والرسل السابعة رسل هذه القلوب .. الى هذه القلوب منها واليها ، بغير واسطة فما فى الكون الا اياها ..

ومرحلة قانون العدل لاتزال سارية ، وهى لاتزال تدال ، بمحض الفضل ، على مرحلة قانون الغابة .. فهما ، انما تقتسمان النفوذ ، اليوم ، وستكون الدولة لقانون العدل ، يوم ينتصر الانسان على الخوف ، ويسلم من القسمة ، ويحقق وحدة ذاته ..

لقد قلنا آن الانسان بفعل الخوف ، وبفعل الرجاء ، قد بدأ يسيطر على نزواته ، وبدواته ، واخذ يروض شهواته بعقله ، حتى لاياذن بالحركة للشهوة التى توقعه فى غضب الآلهة ، وغضب الجماعة ، وتوجب عقوبتهما ، عاجلا أو آجلا ...

ومن هذه السيطرة نشأ الكبت ، وانقسمت الشخصية .. واليوم ، فان من الكبت الذى نعانيه ماهو نصيب احدنا من التراث البشرى فى التاريخ الطويل ، ومنه ماهو كسبه الخاص ، أثناء ممارسته حياته فى بيئته الطبيعية والاجتماعية ، فى عمره هذا القصير ..

والذى أوجب الكبت ، فى الماضى ، ولايزال يوجبه ، هو تصور الجماعة ، وتصور الفرد ، للواجب عرفا ، وشرعا .. وفى يوم الناس هذا وبعد ان قطعت البشرية كل هذا العمر الطويل . فان هذا التصور لايزال غبيا ، وجاهلا ، وبعيدا عن الحكمة .. فما ظنك به يوم بدأ الكبت فى صدر اول فرد بشرى ؟؟

والكبت مرحلة هامة ، من مرحلتى سيرنا نحو الكمال ، وهو ، من ثم ، ليس شرا ، وانما يجيء الشر من اقامتنا عليه ، وقعودنا عن السعى الى التخلص منه .. ولما كان الكبت نتيجة للخوف ، فان التخلص منه لايتم الا بالتخلص من الخوف ، وبالتخلص من الخوف ندخل المرحلة الثانية ، والاخيرة ، من مرحلتى سيرنا الى الكمال ..

ولايكون التخلص من الخوف الا بالعلم ـ الا بمعرفة الأشياء على ماهى عليه فى الحقيقة المستورة عنا باستار الغيب ـ فانا لو اطلعنا على الغيب لهزمنا الخوف ، قال تعالى عن جن سليمان : ((فلما قضينا عليه الموت ، مادلهم على موته الا دابة الأرض ، تاكل منسأته ، فلما خر تبينت الجن ان لو كانوا يعلمون الغيب مالبثوا فى العذاب المهين)) .. وقال تعالى عن لسان حبيبه : ((قل لا املك لنفسى نفعا ، ولاضرا ، الا ماشاء الله ، ولوكنت اعلم الغيب لاستكثرت من الخير ، ومامسنى السوء ، ان انا الانذير ، وبشير ، لقوم يؤمنون)) والغيب هو الله .. والله تبارك وتعالى ، يعنى هذا حين قال : ((قل لايعلم ، من فى السموات ، والارض ،

الغيب ، الا الله ، ومايشعرون ايان يبعثون » وجاءت عبارة :
« ومايشعرون » هنا لتشير الى ان حياتنا ناقصة ، لنقص علمنا ،
ذلك النقص الذى سلط علينا الخوف . وقد حجر الخوف بعضنا
ليكون درعا لباقينا ، وقل بذلك شعورنا .. ونحن ننتظر ان
يبعث ، بالعلم ، البعض الذى اماته الخوف منا .. وذلك امر
محقق ، ولكننا نجهل ميقاته .. وجاء باسم الاستفهام « ايان »
ليشير الى الزمان الذى فيه البعث .. « يبعثون » ، وهذه عبارة
تشير الى اننا اموات بسبب الجهل ، وننتظر البعث بالعلم ..
ولقد قلنا ان العلم الذى به الحياة انماهو ادراك الاشياء كماهى
فى الحقيقة .. والحقيقة هى الله ايضا .. فالحقيقة ، والغيب
هما العلم المطلق وهو فينا ، فى حالة كمون ، ولايفتر منا الافى
المكان ، والزمان .. والذى نحققه من المطلق ، فى الزمان والمكان ،
هو العلم النسبى ـ هو الحق ـ والحق هو وجه الاشياء الذى
يلى الحقيقة .. ونحن لانستطيع ان نحقق من المطلق شيئا الا اذا
تحلينا بما يسمى « ادب الوقت » .. وادب الوقت هو الحضور
فى اللحظة الحاضرة ، من لحظات الزمان .. ذلك بان اللحظة
الحاضرة هى اصل الزمان ، وهى وسط بين طرفين ، كليهما
وهم ، وكليهما ، فى حكم الحقيقة ، باطل .. وهما لايجدان
تبريرهما الا فى الحكمة التى تقوم وراء خلق الازواج ، قال
تعالى : « ومن كل شيء خلقنا زوجين ، لعلكم تذكرون * ففروا
الى الله ، انى لكم منه نذير مبين » .. هذه هى الحكمة فى خلق
« الزوجين » .. « لعلكم تذكرون » ومعناها لعلكم تتعلمون ..
لان عقولنا لاتدرك الأشياء الا باضدادها .. وهذا ماعنيناه بقولنا ،
آنفا ، ان العقل هو قوة الادراك الشفعى ..

ثم قال « ففروا الى الله » .. فروا من الضدين ، كليهما ،
الى من لا ضد له ..

ولنعد للزمان ، فقد قلنا ان اللحظة الحاضرة هى اصـــله ، وقلنا ان هذه اللحظة الحـاضرة هى وســـط بين طرفين كليهما وهم .. ونقول هنا ان هذين للطرفين هما الماضى والمستقبل .. فليس الماضى زمنا ، ولا المستقبل زمنا ، باعتبار الحقيقة ، وانما هما زمانان باعتبار الحكمة . والشىء الذى هـو زمن ، باعتبار الحقيقة ، انما هو اللحظة الحاضرة ، وهذه اللحظة الحـــاضرة تدق ، حتى لتكاد ان تخـــرج عن الزمن ، فاذا خرجت عن الزمن ، التقت بالاطلاق ، فكانت اياه .. وهذا حديث يحتاج الى شرح لانجد له الوقت ، ولا الحيز ، هنا ، وقد نعود اليه مرة اخرى ..

ويهمنا هنا عبارة « ادب الوقت » التى اشرنا اليها آنفا .. فان ادب الوقت هو الحضور مع اللحظة الحـــاضرة ، لان فيها ذات الله .. فما هى فى المـاضى ، ولا هى فى المستقبل .. واللحظة الحاضرة تمثل القلب ، والماضى والمستقبل يمثلان الدماغ .. كل منهما يمثل نصفا .. كل منهما يمثل جناحا من جناحى الطائر ـ طائر الزمان ـ والفضل فى بروز الجســـد اولا ، ثم العقل ثانيا . من القلب ، يرجع الى الله ، ثم الى المـــــستقبل والماضى .. ذلك بان الخوف ازعجنا عن العيش فى اللحظة الحاضرة ، وشدنا الى المستقبل ، وهو بنفس القدر ، ولنفس السبب ، شـــدنا الى الماضى ، فاصبحت حياتنا « ارجوحة » بين الماضى والمـــــستقبل ، فنحن لاننتظر فى اللحظة الحاضرة ، الا ريثما نتحـــول منها .. ونحن ، فى أثناء مرورنا باللحظة الحاضرة ، انما نتلقى الحيـــاة التى نطيقها ، ولولا انا مشدودون الى الماضى والمستقبل ، فلا نلبث ، فى اللحظة الحاضرة ، الا ريثما نتحول ، لاحتـــرقت حياتنا ، هذه الناقصة ، ذلك بان اللحظة الحاضرة ، حين تتناهى ، فيها الحياة المطلقة ، ونحن بعد ، لم يستعد المكان فينا ليتلقى من المطلق الا بالقدر القليل جدا ، وهو قدر يزيد ، بمحض الفضل ، كل حــين ..

والماضي ، والمستقبل حجابان يحولان بيننا وبين اللحظة الحاضرة ، فلا نعيش فيها الا بالقدر الذى تطيقه حياتنا الناقصة ، والتى تسير الى الكمال ، كل حين ، ولكن « بقدر معلوم » واصحابنا الصوفية يقولون « الحجاب رحمة » .. وهم انما يعنونه فى هذا المقام بالذات .. فان التعرض لتجلى الحقيقة الكبرى على أوان ناقصة يحصل منه « السحق » وهو ذهاب العقل ، واذا ذهب العقل فقد انقطعت الزيادة ..

والى هذين الحجابين ، فى المكان الأول ، الاشارة بقوله تعالى : « سواء منكم من اسر القول ، ومن جهر به ، ومن هو مستخف بالليل ، وسارب بالنهار ✽ له معقبات ، من بين يديه ، ومن خلفه ، يحفظونه من أمر الله .. ان الله لايغير ما بقوم حتى يغيروا ما بانفسهم ، واذا اراد الله بقوم سوء فلا مرد له ، ومالهم من دونه من وال » عنى بقوله « من اسر القول » المادة غير العضوية ، وعنى بقوله « ومن جهر به » المادة العضوية ، وهى تشمل جميع درجات الاحياء . قوله « له معقبات » يعنى حجبا .. « يحفظونه من امر الله » يعنى من التجلى الوترى ، فلا ينمحق تحت هيبته .. قوله تعالى : « ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بانفسهم » يعنى ، فيما يعنى ، لا يتجلى تجليا وتريا على مكان قبل استعداد ذلك المكان لتلقى الامر الجلل .. وهو ، تقدست اسماؤه ، فيما هو دون التجلى الوترى ، لم ينزل كلامه على حبيبه الا بعد ان أعد المكان بطول التحنث .. ثم قال ، زيادة فى ذلك : « يايها المزمل ✽ قم الليل الا قليلا ✽ نصفه او انقص منه قليلا ✽ أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلا ✽ انا سنلقى عليك قولا ثقيلا » ..

وعندما طلب موسى رفع هذه الحجب قبل ان يستعد المكان منه للتجلى الوترى لم يجب ، بمحض الرحمة ، الى طلبه .. قال تعالى فى ذلك : « ولما جاء موسى لميقاتنا ، وكلمه ربه ، قال رب !!

ارنى ، انظر اليك !! قال : لن ترانى ، ولكن انظر الى الجبل ، فان استقر مكانه فسوف ترانى ، فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا ، وخر موسى صعقا ، فلما افاق قال : سبحانك !! تبت اليك ، وانا أول المؤمنين ❊ قال : يا موسى انى اصطفيتك على الناس برسالاتى ، وبكلامى ، فخذ ما آتيتك ، وكن من الشاكرين » . .
وهذا ليس نهيا لموسى عن طلب الزيادة ، ولكن توجيه له ليطلب الزيادة بالعمل بالشريعة ، ليستعد المكان منه للتلقى ، فيجيء الفيض من الله . . لان استعداد المكان انماهو سؤال بلسان الحال ، والدعاء بلسان الحال لا تتأخر الاجابة عليه ، ولا الاستجابة له ، والله ، تبارك وتعالى ، يقول : « أدعونى استجب لكم » . .

وقد فدى الله موسى بالجبل ، وجعله له عبرة ، ومن خلال العبرة تم التجلى لموسى ولكنه لم يكن تجليا وتريا لان الجبل قد جعل واسطة فيه . .

وحدة البنية البشرية

ان القلوب حرم آمن من الخوف لانها بيت الله ، وقد اسلفنا فى ذلك القول ، ونحب ان نقول ان هذا ينطبق على جميع القلوب، حتى قلب المادة غير العضوية وهى مانسميها اصطلاحا «ميتة» .

وعن سلامة القلوب فى أصل التكوين قال المعصوم : « كل مولود يولد على الفطرة ، فابواه يهودانه ، او ينصرانه ، أو يمجسانه » . .

وفى ذلك قال تعالى عن اليهود : « وقالوا قلوبنا غلف ، بل لعنهم الله بكفرهم ، فقليلا مايؤمنون » وقال عنهم ايضا : « فبما نقضهم ميثاقهم ، وكفرهم بآيات الله ، وقتلهم الانبياء بغير حق ، وقولهم قلوبنا غلف . . بل طبع الله عليها بكفرهم ، فلا يؤمنون الا قليلا » . . قال هناك « فقليلا ما يؤمنون » وقال هنا « فلا يؤمنون الا قليلا » وذلك ان الكافر لايكون بغير ايمان اطلاقا ، فان

فى قلبه الحقيقة - فى عقله الباطن الحقيقة - ولكن بينهما وبين عقله الواعى حجب كثيفة وهذه الحجب هى التى عبر عنها ، تبارك وتعالى ، حين قال : ((كلا ، بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون * كلا ، انهم عن ربهم ، يومئذ ، لمحجوبون)) والرين هو الصدا والدنس والطبع .. وذلك كله قد كان بسبب الكبت الذى جرى منذ نشاة المجتمع البشرى ، والذى لايزال يجرى ، وهو قد قام فى ظل الاوهام ، والخرافات ، والاباطيل ، التى صحبت علمنا بالله ، وبحقائق الأشياء ، وبما يكون عليه الواجب علينا نحو انفسنا ، ونحو الله ، ونحو الجماعة .. وهذه هى المرحلة التى أسميناها مرحلة الجسد والعقل المتنازعين ، والتى ستعقبها ، بعون الله وبتوفيقه ، مرحلةالجسد والعقل المتسقين.

ولما كانت القلوب ، فى سويداواتها ، قدجعلها الله حرما آمنا فان منطقة الكبت لاتقع فيها ، وانما تقع فى ((الخرطوم)) ، فى ((المقرن)) فى ((البرزخ)) الذى يقوم عند مجمع بحرى العقل الواعى ، والعقل الباطن .. قال تعالى فى ذلك ، ((مرج البحرين يلتقيان * بينهما برزخ لايبغيان)) .. وهذا ((الخرطوم)) هو موطن الانسان فى الانسان - هو موطن الانسان الكامل ، فى الانسان الذى هو مشروعه المستمر التكوين - وكما ان طريق التكوين ، والتطوير ، لولبى ، فكذلك الكبت فانه لولبى .. هو لولب يدور حول مركز ..

والانسان الكامل يجىء من التقاء موسى العقل ، بخضر القلب على شرط ان يجد موسى مع الخضر الصبر ، والثبات .. ولقد قص الله علينا عن موسى الشريعة ، وخضر الحقيقة ، حيث لم يستطع موسى مع الخضر صبرا : ((واذ قال موسى لفتاه لا ابرح حتى ابلغ مجمع البحرين ، أو أمضى حقبا * فلما بلغا مجمع بينهما نسيا حوتهما فاتخذ سبيله فى البحر سربا * فلما

جاوزا قال لفتاه آتنا غداءنا ، لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا ❋
قال ارايت اذ اوينا الى الصخرة ؟ فانى نسيت الحوت !! وما انسانيه الا الشيطان ، ان اذكره ، واتخذ سبيله فى البحر .. عجبا !! ❋ قال ذلك ما كنا نبغى ، فارتدا على آثارهما قصصا ❋ فوجدا عبدا من عبادنا ، آتيناه رحمة من عندنا ، وعلمناه من لدنا علما ❋ قال له موسى : هل اتبعك ، على ان تعلمنى ، مما علمت ، رشدا ؟ ❋ قال انك لن تستطيع معى صبرا ❋ وكيف تصبر على مالم تحط به خبرا ؟ » ولم يصبر موسى .. وانما هو لم يصبر لانه صاحب شريعة ، وكان على الحق غيورا .. ولو قد عمل بشريعته هذه حتى بلغ حقيقة كحقيقة الخضر لصبر معه .. والمحاولة هنا ، عندنا نحن ، هى ان تقوى ، بالعبادة ، عقولنا حتى تساير ، فى المطالع ، قلوبنا ، من غير ان تزعجها ، او تعجلها ، فنعيش مستنيرين ، ومنورين ، فى افقى مشارقنا ، ومغاربنا ، بقمر شريعتنا ، وشمس حقيقتنا ، والمسافة بينهما محفوظة ، فى غير اخلال : « لا الشمس ينبغى لها ان تدرك القمر ، ولا الليل سابق النهار .. وكل فى فلك يسبحون » .

ومنطقة الكبت ، فى صدر كل منا ، عبارة عن سجن رهيب .. أشد رهبة من سجن « الباستيل » المشهور .. وهو سجن مظلم ، لايصل اليه النور ، ولا الهواء .. وقل ان تصل اليه ، من الخارج ، الاصوات .. وقد زج فى هذا السجن بابرياء ، ومظاليم ، واحرار ، بغير محاكمة وقام على ابوابه سجانون عتاة ، اشداء ، ارهبوا السجناء ، واذلوهم ، واضطروهم الى الطاعة ، ففقدوا الحرية ، وفقد بعضهم الحركة .. ولكنهم لايزالون ، جميعهم ، احياء يتطلعون ليوم الانعتاق ، وامامهم احدى خطتين : اما ان يثوروا بالسجانين والحراس ، ويقتحموا ابواب السجن ، فتسيل بهم الشوارع سيلا بشريا

مجتاحا ، اوان يجدوا العدل منا ، والانصاف ، والتفهم العميق ..
وفى سبيل هذا التفهم برزت في أروبا ، وفى امريكا ، اساليب من
الحياة ، والفكر ، كاساليب ((الهيبيز)) واساليب ((اللامعقول)) ،
ولكنها اساليب تدل على الحيرة ، وعلى القلق ، وعلى الجهـــل
باصل المشكلة .. ومع ذلك فانها تملك فضيلة الاعتراف بهـذه
المأساة ، فى حياتنا ، التى تحاول الكثرة الغالبة تجاهلها .. ومن
أجل ذلك فانا لانعتبر حركات الشباب ، التى تتجه اتجـــاه
((الهيبيز)) علامة مرض ، وانما هى عندنا علامة صحة .. وهذا
هو الذى جعلنا نجزم بانا نعيش الآن فى اخــريات ايام مرحلة
التطور العضوى ـ العقلى ..

ومن أجل تفهم هذه المأساة لابد من تعمق اصــولها ، وهى
اصـــول بدأت منذ فجـر العقل البشرى .. وقـــد كان الخـــوف ،
والجهل مسيطرين على قضاة وسجانى هؤلاء البؤساء .. ونحن
لانستطيع ان نعيد الحرية لهؤلاء المظاليم الا اذا كنا ، قضـــــاة
وسجانين ، متحررين من الخوف ، ومتحررين من الجهـل ..
ولايحررنا من كل أولئك الا العلم بالأشـياء على ماهى عليه فى
الحقيقة .. وأول ماتعطيه حقيقة الأشياء ان الناس قـد خلقوا
ليكونوا احرارا .. ولا يذهلننا عن هذه الحقيقة كون الناس قد
خلقوا ضعافا .. فان هذه مرحلة ، وهم ، فى هذه المرحلة ، قد
باعوا حريتهم ، وقد انى لهم الان ان يستردوها بالعمل الجماعى ،
وبالعمل الفـــردى ..

وأول مايمكن ان يقدمه لنا العمل الجماعى تنظيم الجـماعة
وفق قانون العدل ، بدلا من قانون الغابة ، حتى نحارب الخوف فلا
نضطر الى زيادة السجنـــاء (الكبت) ، بغير موجب .. وقانون
العدل يقول انه ليس هناك قوى ، وضعيف ، وانما هناك محق

ومبطل .. والمحق يصـــله حقه وان كان عاجـــزا ، والمبطل ينال منه سلطان العدل ، وان كان متجبرا كفارا ..

ومن اجل محاربة الخوف فان قانون العدل يقول : ان الناس اشراك فى خيرات الارض ، واشراك فى تولى السلطة ــ الاشتراكية والديمقراطية ــ وفى بنتهما الشرعية ــ العدالة الاجتماعية ــ

وثانى ماتعطيه حقيقة الاشياء ان الوجود خير كله .. لا مكان للشر ، فى أصله ، وانما الشر فى مظهره .. وسبب الشر هو جهلنا بهذه الحقيقة .. ومن ثم ، فليس هناك مايوجب الخــوف .. ونحن لا نستطيع ان نستيقن هذه الحقيقة الكبرى الا اذا تلقينا من الله بغير واســطة ، ولا يكون لنا ذلك الا اذا لقينا الله ، ونحـن لا نستطيع ان نلقاه الا اذا عشنا متحلين ((بادب الوقت)) وهو ان نعيش فى اللحظة الحاضرة ، غير مشتغلين بالماضى ، ولابالمستقبل .. وهذا ما من اجله فرضت الصلاة .. وهذا هو الصــلاة .. وستجدون هذا مفصلا فى هذا الكتاب الذى نعيد تقديمه اليكم بهذه المقدمة الطويلة ، المستفيضة ..

ان التحلى ((بادب الوقت)) يوصل الى ذات الله ، ويوصــل بفضل الله ، الى توحيد الذات البشرية ، وذلك بحل العقد النفسية التى قسمت شخصيتنا ، واورثتنا الشذوذ فى جميع صــوره ، وجميع مســـتوياته .. وهو ايضا ــ التحلى ((بادب الوقــت)) ــ يفتتح العهد الجديد ــ عهد المرحلة الرابعة من مراحل نشــأة الانسان ــ وهى مرحلة التطور العقلى الصرف ، الذى تحدثنا عنه آنفا ، ووعدنا بالعودة اليه .. بيد أنا لا نملك فى هذا المقام فى أمره تطويلا .. وانما نكتفى بماورد فى شانه فى مقامه من هذه المقدمة ..

خـــاتمة

اما بعد فان هذه المقدمة قد استـــتفاضت ، وكان همى دائما ، وانا اسير فى شعابها ، كفكفة اطرافها .. ولكن موضوعها طويل بطبعه ، وسنفرد له مؤلفا مستقلا باسم « الاســـلام علم نفس »

وبالله التوفيق .. وعليه التكلان ..

ومهما يكن من الأمر ، فان الله ، تبارك وتعالى ، قد اظفرنا من هـــذه المقدمة بما نريد .. وانى لأرجو ان ينفع الله بها الناس ، فيقبلوا على قراءة « رســـالة الصلاة » وهم ينتظرون من وراء صلاتهم ، فائدة حاضرة ، وعاجلة ، فان آجلا لا يبدأ عاجله اليوم ليس بمرجو ..

✲ ● ✲

✲ ● ✲

بسم الله الرحمن الرحيم

« اليوم اكملت لكم دينكم ،
واتممت عليكم نعمتى ،
ورضيت لكم الأسلام دينا • »
صدق الله العظيم

نحمدك اللهم ولا نحصى ثناء عليك ونستهديك ونستعينك •

بشارة

الأسلام عايد عما قريب بعون الله وبتوفيقه •• هو عايد ، لأن القرآن لا يزال بكرا ، لم يفض الاوائل من اختامه غير ختم الغلاف •• وهو عايد ، لأن البشرية قد تهيأت له ، بالحاجة اليه وبالطاقة به •• وهو سيعود نورا بلا نار ، لأن ناره ، بفضل الله ثم بفضل الاستعداد البشرى المعاصر ، قد اصبحت كنار ابراهيم بردا وسلاما •• ان العصر الذى نعيش فيه اليوم عصر مائى ، وقد خلفنا وراء نا العصر النارى •• هو عصر مائى ، لأنه عصر العلم •• العلم المادى المسيطر اليوم والعلم الدينى — العلم بالله — الذى سيتوج ويوجه العلم المادى الحاضر غدا •• وفى عصر العلم تصان الحرية وتحقن الدماء وتنصب موازين القيم الصحائح •

البصـــيرى امام المديح يقول :

شيئآن لا ينفى الضلال سواهما نور مفاض أو دم مسفوح

وقد خلفنا وراء نا عهد الدم المســفوح ، فى معنى ما خلفنا العصر النارى ، واصبحنا نستقبل تباليج صبح النور المفاض .. بل أن هذا النور قد استعلن على القمم الشــواهق من طلائع البشرية ، ولن يلبث ان يغمــر الارض من جميع اقطارها .. وسيردديومئذ ، لسان الحال ولسان المقال ، قول الكريم المتعال :

« الحمد لله الذى صدقنا وعده ، واورثنا الارض ، نتبوأ من الجنة حيث نشاء ، فنعم اجر العاملين »

❊ ● ❊

❊ ● ❊

توطئة البحث ..

السلام هو حاجة البشرية اليوم .. وهو فى ذلك حاجة حياة أو موت ، ذلك بان تقدم المواصلات الحديثة ، الذى يحاول باستمرار ان يلغى الزمان والمكان ، قد جعل هذا الكوكب اضيق من ان تعيش فيه بشرية منقسمة على نفسها شاكة السلاح متحاربة .

ومع ان التجربة البشرية الطويلة فى ممارسة الحروب دلت على أن الحرب لا تحل مشكلة ، فأن اسلحة الدمار الحديثة افادت معنى جديدا عن الحرب وهو انها ، زيادة على عدم جدواها فى حل المشاكل ، قد اصبحت وبالا على المنهزم والمنتصر .. بل انه اصبح واضحا أن الحرب العلمية الحديثة ، اذا نشبت ، فلن يكون فيها منهزم ومنتصر ، وانما سيكون فيها فناء المدنية الحاضرة ، وتأخير عقارب ساعة التقدم الذى دفعت فيه البشرية كثيراً من عرقها ومن دموعها ومن دمها .

ان البشرية اليوم تقف على مفترق الطرق ، ولا تملك طويلا من الوقت تنفقه فى التردد وفى ممارسة الجهود التى لا تتسم بميسم الحذق والذكاء ، ولابد لها من سلوك احد طريقيها : اما الطريق الصاعد الى مشارف الحضارة والسلام ، أو الطريق الهابط الى مزالق الهمجية والحروب .. على ان الحروب الحديثة هى الفناء والدمار .. ومن أجل ذلك قلنا آنفا ان حاجة البشرية

الى السلام فى الوقت الحاضر هى حاجة حياة أو موت .

المدنية الجديدة ..

على ان السلام لا يمكن ان يتحقق بغير مدنية جديدة .. أو قل روح مدنية جديدة ، ينفخ فى هيكل المدنية الغربية الآلية الحاضرة ، فيوجهها وجهة جديدة ويعطيها قيما جـــديدة .. فالمدنية الغربية الآلية الحاضرة ـ مدنية المظاهـــر الخارجية الكبيرة ، والأنتاجيات الكبيرة ، والمـــدن الكبيرة .. هى مدنية الجماعات التى تطوع الفرد لنظامها . والمدنية الجديدة ، التى تجعل الســـــلام ممكنا ، يجب ان تكون مدنية القيم الداخلية الدقيقة .. مدنية الفرد الذى يتوسل بوســيلة الجماعة ليحقق حـــريته الداخلية وليمكن رفقاءه مـــن ان يحقق كل منهم حريته هذه الداخلية .

ان عصرنا الحاضر يمكن ان يوصـــــف بأنه عصر الذرة : ويمكن ان يوصف بانه عصر اســــتكشاف الفضاء الخارجى ، ولكن ينطبق عليه اكثر ، كونه عصر رجل الشـــارع .. عصر الرجل العادى المغمور ، الذى استحرت على مضجعه شـــمس الحياة الحديثة ، فنهض وحمل عصاه على عاتقه وانطلق يسير فى الشعاب ، يبحث عن حياته وعن حريته وعن نفسه ، بعد ان اذهل عن كل اولئك طوال الحقب السوالف من تاريخه المكتوب وغـــير المكتوب .. ذلك التاريخ الذى اخذ يراجع اليوم ، ويكتب من

جديد على هدى قيم جديدة •• وهذه القيم الجديدة هى التى ستوجه المدنية الغربية الآلية الحاضرة وجهتها الجديدة وتبنى بذلك المدنية الجديدة •

المدنية الغربية ذات وجهين ••

ان المدنية الغربية الآلية الحاضرة عملة ذات وجهين : وجه حسن مشرق الحسن ، ووجه دميم • فاما وجهها الحسن فهو اقتدارها فى ميدان الكشوف العلمية ، حيث اخذت تطوع القوى المادية لأخصاب الحياة البشرية ، وتستخدم الآلة لعون الانسان •• واما وجهها الدميم ، فهو عجزها عن السعى الرشيد الى تحقيق السلام ، وقد جعلها هذا العجز تعمل للحرب ، وتنفق على وسايل الدمار اضعاف ما تعمل للسلام ، واضعاف ما تنفق على مرافق التعمير •

فالوجه الدميم من المدنية الغربية الآلية الحاضرة هو فكرتها الاجتماعية ؛ وقصور هذه الفكرة عن التوفيق بين حاجة الفرد وحاجة الجماعة •• حاجة الفرد الى الحرية الفردية المطلقة ، وحاجة الجماعة الى العدالة الأجتماعية الشاملة ، وفى الحق ان العجز عن التوفيق بين هاتين الحاجتين : حاجة الفرد ، وحاجة الجماعة ، ظل آفة التفكير الاجتماعى فى جميع عصور الفكر البشرى •

وهذا التوفيق هو الى اليوم القمة التى بالقياس اليها يظهر

العجز الفاضح فى فلسفة الفلاسفة وفكر المفكرين ، ويمكن القول بان فضيلة الاســـــلام لا تظهر بصورة يقصر عنها تطاول كل متطاول الا حين ترتفع المقارنة بينه وبين المذاهب الاخرى الى هذه القمة الشماء .

الفضـــــل للتوحيد ..

وقد استطاع الاسلام ، بفضل التوحيد ، ان يفض التعارض البادى ، لدى النظرة الاولى ، بين حاجة الفرد وحاجة الجماعة وان ينسق هاتين الحاجتين فى ســـمط واحد ، تكون فيه حاجة الفرد الى الحرية الفردية المطلقة امتدادا لحاجـــة الجماعة الى العدالة الاجتماعية الشاملة ، وبعبارة اخرى ، استطاع ان يجعل تنظيم الجماعة وسيلة الى الحرية . وهو بعد هذا أنما استطاع هذا التنسيق لأن تشريعه يقع على مستويين : مستوى الجماعة ومستوى الفرد : فاما تشريعه فى مســـــتوى الجماعة فيعرف بتشريع المعاملات ، واما تشريعه فى مســـــتوى الفرد فيعرف بتشريع العبادات ، والســـمة الغالبة على تشريع المعاملات إنه تشريع ينسق العلاقة بين العبد والعبد .. والسمة الغالبة على تشريع العبادات انه تشريع ينسق العلاقة بين العبد والرب .. وليس معنى هذا ان كلا من هذين التشريعين يقوم بمعـــزل عن

الآخر ، وانما هما شطرا شريعة واحدة ، لا تقوم الا بهما معا ٠٠ فتشريع المعاملات تشريع عبادات فى مســـــتوى غليظ ، وتشريع العبادات تشريع معاملات فى مستوى رفيع لأن سمة الفردية فى العبادات اظهر منها فى المعاملات ٠

الفردية هى المدار ٠٠

وهذه الفردية هى جوهر الامر كله ، وهى التى عليها مــدار التكليف ، ومدار التشريف ٠٠ وقد وكدها الاسلام توكيدا ، اذ لا تنصب موازين الحساب ، يوم تنصب ، الا للافراد ٠ والله تعالى يقول « ولا تزر وازرة وزر أخرى » ويقول عز من قائل « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره * ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ٠ » ويقول « ونرثه ما يقول ويأتينا فردا » ويقول « ان كل من فى السموات والارض الا آتى الرحمن عبدا * لقد احصــاهم وعدهم عدا * وكلهم آتيه يوم القيامة فردا » ويقول « ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة »

فالفرد فى الاسلام هو محور التشريع بالاصالة ، والجماعة بالتبعية للفرد ، ذلك بان الفرد لا يتم استواؤه الا بتجاربه فى الجماعة ، فكأن العبادة فى الخلوة مدرسة تعده الاعداد النظرى ولا يجد فرصة التطبيق العملى الا فى سلوكه فى الجماعة وتمرسه بمعاملة افرادها ٠

فليست للعبادة قيمة أن لم تنعكس فى معاملتك الجماعة معاملة هى فى حد ذاتها عبادة ، ولقد قال المعصوم : « الدين المعاملة » ٠ ثم جاءت تشاريع الاسلام سواء فى الحدود ، أو فى القصاص ، مهيئة للتعاون مع تشاريع العبادة على تربية الفرد ، تربية ينتفع بها هو فى المكان الاول ، وتنتفع بها الجماعة فى المكان الثانى ٠٠ ولنسق لذلك مثلا حد السرقة ، وهو من الحدود الاربعة الاصيلة، فان السارق اذا سرق اقل من النصـــاب لا يقطع ، واذا سرق النصاب من غير الحرز لا يقطع ، واذا سرق النصاب من الحرز نظر فى امره فاذا كان جائعاً جوعاً ملجئا لا يقطع ، فان لم يكن جائعاً فهل هو مريض ؟ فان كان مريضا لا يقطع ، وانما يلتمس له الطب ٠٠ فان لم يكن الحد مدروءا عنه بأى شبهة ، وقامت عليه اركان السرقة كلها قطع ٠ والحكمة وراء القطع العلاقـــة القائمة بين العقل واليد ٠٠ فالأنسان الجاهل دائما يحاول حل مشكلته باليد ، فهو ان ناقشـــته مثلا ، واعيته الحجة بادر الى العنف بيده ٠٠ وحاجـــة الله الى الخلق قلوبهم وعقولهم ٠٠ « لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقـــوى منكم » وللعلاقة القائمة بين اليد والعقل رأت حكمة الشـــارع الحكيم ان اليد اذا تعطلت بالقطع نشط العقل ، وتفتق ذكاؤه عن اساليب للتعامل اقرب الى المســـالمة منها الى المناجزة ، وكذلك قطعها ،

وحقق بهذا القطع ، الذى لم يكن منه بد ، مصلحة للفرد بايقاظ عقله ، ومصلحة للجماعة بصـــون حقوقها من الاعتداء عليها ..
وهذا ما اردناه حين قلنا آنفا ان تشاريع الاسلام ، ســواء فى الحدود أو فى القصاص ، مهيئة للتعاون مع تشـــاريع العبادة على تربية الفرد تربية ينتفع بها هو فى المكان الاول ، وتنتفع بها الجماعة فى المكان الثانى ..

والسلام الذى بدأنا بذكره توطئة هذا البحث لا يحل على الأرض الا اذا بلغ كل فرد ان يكون فى سلام مع نفســـه ، فان النزاع المسلح ، وغير المسلح ، بين الجماعات ، ان هو الا صورة للصراع الداخلى فى كل بنية فردية على حدتها ، فى مضـــمار انقسامها بين ظاهر تعلنه امام الناس ، وباطن تسره فى حناياها وتنافق به .. ولا يمكن للفرد أن يكون فى سلام مع نفسه ، الا اذا أعاد اليها وحدة الفكر والقول والعمل .. فاصبح يفكر كما يريد ، ويقول كما يفكر ، ويعمل كما يقول ، ثم لا تكون عاقبة عمله هذا الا خيراً للناس وبرا بهم .. وهكذا يكون فوق مستوى قوانين الجماعة ، لانه بفضل تربيته ورياضته نفسه قد اصـــبح من المجودين للسلوك المحسنين و « ما على المحسنين من سبيل » ..

فاذا كان الفرد بهذه المرتبة من كمال الشمائل ، فهو الرجل — هو الحر — ولا ينجب هذا الرجل الا المجتمع الكامل ، وهو المجتمع الذى يقوم على ثلاث دعامات : العدالة الســياسية ، وتسمى الديمقراطية ، والعدالة الاقتصادية ، وتسمى الاشتراكية ،

والعدالة الاجتماعية ، وتعنى محو الطبقات التقليدية التى عرفها تاريخ الصراع الطبقى عبر العصور وأزداد تبلوراً وحدة منذ النهضة الصناعية فى القرنين الأخيرين •• والعدالة الاجتماعية ، الى حد كبير ، تجىء كنتيجة للمساواة فى السلطة والمساواة فى المال •• الديمقراطية والاشتراكية •• ثم هى أثر مباشر من آثار التربية الفردية الكاملة •

ثم ان هذا المجتمع الكامل ، فوق ماذكرنا ، تقـــوم علائق افراده فى القاعدة على قانون دستورى ، وفى القمة على رأى عام سمح ، لايضيق بانماط الشخصيات المتباينة ؛ لأنه يرمى الى تربية الفرد الذى يمتاز عن القطيع بأصالة وبفردية •

والقانون الدستورى ، فى الفكر الاسلامى ، هو القانون الذى يملك التوفيق بين حاجة الفرد الى الحرية الفردية المطلقة ، وحاجة الجماعة الى العدالة الاجتماعية الشاملة ، وهكذا لايضحى بالفرد فى سبيل الجماعة ، ولا يضحى بالجماعة فى سبيل الفرد ، وانما هو قســـط موزون بين ذلك •• يحقق حين يطبق ، بكل جزئية من جزئياته ، مصلحة الفرد ومصلحة الجماعة فى آن معا ، وفى سياق واحد ، ولقد ضربنا لذلك مثلا بقانون حد السرقة •

والفرد الذى يحقق السلام مع نفسه هو المســلم الذى قال عنه المعصوم « المسلم من سلم المسلمون من لســانه ويده » و « المســـلمون » هنا تفهم بالمعنى العام ، وتعنى الناس كلهم ،

فالمسلم تسلم كل الخلائق من لسانه ويده ومن خواطر ضـــميره المغيب . ولقد قال المعصوم أيضا « الاسلام قيد الفتك » ويعنى أن المسلم غير فتاك ، لابجارحة ولابخاطر يتحرك في ضميره فيه نية الفتك ، ولذلك فقد قال المعصوم « سوء الخلق ذنب لايغتفر وسوء الظن خطيئة تفوح » وقال « كل المســلم على المســلم حرام .. دمه وماله وعرضه وان يظن به ظن السوء » .

وانت ، اذا فهمت سعة احاطة الحديث في هذا المســتوى ، علمت ان المسلم فى عبارة « كل المسلم » تعنى المعنى العام ، وهو مطلق خلق الله ، من الشجر والحجر والمدر ، والى ذلك الاشارة بقوله تعالى « أفغير دين الله يبغون وله أسلم من في الســموات والأرض طوعا وكرها واليه يرجعون ؟ » وعلمت ان المســلم في عبارة « على المسلم » تعنى المعنى الخاص المقصود من قوله تعالى « الا من اتى الله بقلب سليم » سليم من الانقسام بين سيرة معلنة تخالف سريرة مبطنة ، أو قل سليم من دقائق الرياء الاجتماعى ، الذى هو آفة أكابر العارفين . فالقلب السليم هو القلب «السلام»

هناك حديث يقول « لكل شيء قلب ، وقلب القرآن يس ، ويس لها قلب » ولقد عرف العارفون أن قلب يس قوله تعـالى « سلام قولا من رب رحيم » فكأن السلام في الاســلام ، هو خلاصة الخلاصة ، وأصل الاصول ، وعبارة « السلام عليكم » هى تحية المسلم حين يلقى الناس في جميع أوقات يومه .. هذه

العبارة الرائعة ، المشرقة الحروف ، الحلوة الجرس ، قد أنى لها أن تطبق في واقع الناس اليومى تطبيقا عمليا ، تتخذ له وسـائله الصحائح ، لكى يحل في الأرض السـلام ، وفى قلوب الناس المحبة ، وعلى وجوههم طفح البشر والمسرة ٠

الحـرية الفردية المطلقة ٠٠

في الاسلام الأصل الحرية ٠٠ فكل انسـان من حيث انه انسان ٠٠ هو حر الى أن يسىء استعمال الحرية فتصادر حريته ، حينئذ ، وفق قوانين دسـتورية ، وقد تحدثنا عن القوانين الدستورية في الاسلام قبل قليل ٠

فالحرية حق يقابله واجب ٠٠ هذا الواجب هو حسـن التصرف في الحرية ٠٠ والحرية لا حدود لها ، الا حيث يعجز الحر عن التزام واجبها ، فتصبح محدودة بطاقته على الالتزام ٠٠ وفي الحق ان الحرية الفردية فى الاسلام مطلقة ، على أن تؤخذ بحقها ٠٠ وحقها كما قلنا حسن التصرف فيها ، ولا يستطيع ان يأخـذها بحقها الا من جود العبادة ، وأوفى فى ذلك بوصية المعصوم حين قال « تخلقوا باخلاق الله ، ان ربى على سراط مستقيم » فمن تخلق باخلاق الله فقد سار من المحدود الى المطلق ، فاحرز من استقامة السيرة ، وسلامة السريرة ، ما يجعل نتائج عمله كلها خيرا وبرا بالاحياء والاشياء ، حتى لايكون للقوانين عليه من سبيل ٠

لقد ظهر من الآيات التى سقناها آنفا ان الفرد فى الاسلام هو مدار التكليف ، وقلنا ان التكليف هو العبودية ، ونقول هنا ان الرسل لم ترسل ، وان الكتب لم تنزل ، الا لتعين الفرد على القيام باعباء تكليفه .. « طه ما انزلنا عليك القرآن لتشقى » أو « الم . ذلك الكتاب لا ريب فيه . هدى للمتقين » ونقول أيضا ان الفرد من رجل أو امرأة هو الغاية وكل ماعداه وسيلة اليه ، بما في ذلك الأكوان والقرآن « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى انفسهم حتى يتبين لهم انه الحق أولم يكف بربك انه على كل شىء شهيد ؟ » .

فاذا كان القرآن وسيلة الفرد وهو بلا ريب كذلك ، فقد اصبح جميع التشريع وسيلته كذلك ، ومن باب أولى .. واعظم تشريع طوع لانجاب الفرد الحر حرية فردية مطلقة تشريع الصلاة .

الصلاة وسيلة ..

والوسيلة دائما من جنس الغاية .. فهى طرف منها ، والاختلاف بين الوسائل وغاياتها اختلاف مقدار ، وليس اختلاف نوع ، ولا يمكن لدى النظر السليم التوسل الى الغايات الصحائح بالوسايل المراض .

والصلاة التى هى وسيلة ، الصلاة الشرعية المألوفة ، فى الحركات المعروفة والاوقات ، وهى وسيلة الى المقام الذى يكون فيه الفرد في صلة تامة ، وجمعية شاملة بربه ، والقرآن فى هذا

الباب لايحوجنا الى طويل تفكير ، فهو حاسم وقاطع .. فاسمعه وهو يقول «واقم الصلاة ، ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ، ولذكر الله اكبر ، والله يعلم ماتصـــنعون » واسمعه يقول .. « واقم الصلاة لذكرى » وذكر الله في هذه الآية ، وفى سابقتها الحضور مع الله بلا غفلة ، ووسيلته الصلاة .. واسمعه يقول .. « فاذكرونى اذكركم وأشكروا لى ولا تكفرون * يأيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصـلاة ، ان الله مع الصــابرين » والصبر هنا يعنى الصوم ، وانما تكون الاستعانة بالصـــوم والصلاة على دواعى الجبلة الى الغفلة عن الله ، وهو راجع الى أن الصلاة وسيلة الى ذكر الله بلا غفلة عنه .

ويقول الله تعالى لنبيه « فاصبر على مايقولون ، وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس ، وقبل غروبها ، ومن آناء الليل فسبح ، وأطراف النهار ، لعلك ترضى * ولاتمدن عينيك الى مامتعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ، ورزق ربك خـير وأبقى » وسبح هنا تعنى صل وفي هذه الآية أوقات الصــلاة الخمسة وهى : قبل طلوع الشمس الصــبح ، وقبل غروبها ، الظهر والعصر .. وكذلك عبـارة واطراف النهار .. ومن آناء الليل ، المغرب ، والعشاء ، هذا الى جانب أن الآية تعنى أيضـا بالتسبيح الذكر والتنزيه ..

وعبارة « لعلك ترضى » تجعل الصلاة وسيلة الى الرضـا

بصورة لا لبس فيها ولا غموض ، والرضا بالله رباً نتيجة تمام المعرفة به ، وتمام المعرفة بالله ثمرة ذكره بلا غفلة ولا انقطاع .. والرضا بالله رباً يعنى ترك التمنى . ومما يؤثر عن الحسن بن علي أنه قال « من وثق بحسن إختيار الله له ، لم يتمن غير الحالة التى هو فيها » ولذلك قال تعالى ههنا « ولا تمدن عينيك الى مامتعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ، ورزق ربك خير وابقى » يعنى لاتتمن ، وارض بما قسمه الله لك ، ثقة بحسن تدبيره ، واستعن على حالة الرضا هذه بالصلاة .

الرضا بالله عبودية ..

قلنا ان الصلاة وسيلة ، وقررت لنا الآيات السوالف هذه الحقيقة . وظهر انها وسيلة الى ذكر الله ، وقلنا ان ذكر الله هو الحضور معه بلا غفلة عنه ، وثمرة الذكر بلا انقطاع ولا غفلة تمام المعرفة بالله وثمرة تمام المعرفة الرضا بالله ، وعاقبة الغفلة عن الله السخط عليه ، وادق مظاهر السخط على الله التمنى ، وهو مانهت عنه الآية الكريمة المعصوم ، والرضا بالله مجاهدة فى مقام العُبُودية ، فان العبد لايزال يجاهد دواعى طبعه الى السخط على الله ، وعدم الرضا به فى دقائق صور السلوك جميعها ، حتى يرضى الله تعالى عنه ، فينتقل من مرتبة النفس الراضية الى مرتبة النفس المرضية وهى النفس التى لا يلقيها الله الا ماتحب .. وفي الحق ، ان النفس لاترضى عن الله تمام الرضا وهى تلقى من الله

ما تكره ، ولذلك فقد عبر تعالى عن حالة المرضيين عنده بقوله « لهم ما يشاءون فيها ولدينا مزيد » ولما كان الانسان لا يشـــاء مايكره ، ولا يرضى ان تتخلف مشيئته ، فقد انجـــز الله لهم مشيئتهم ، والى ذلك الاشارة بقوله « لهم مايشاءون فيها » ثم لما كانوا مرضيين من الله لطول مارضوا بالله مد لهم الله علما به متجددا .. به تتجدد مشيئتهم فترتفع الى مستوى منجـزات جديدة من المطالب الرفيعة ، التى تستجاب فور بروزها الى منطقة الفكر ، أو الى منطقة القول ، والى ذلك الاشارة بقوله « ولدينا مـــزيد »

فاذا أحسن العبد التوسل بوسيلة الصـــلاة اعانته على الدخول فى مقام الرضـــا بالله ، فاذا أحسن السلوك فى مراقيه بالمزيد من اتقان الصـــلاة دخل في درجات العبودية . ولمقـــام العبودية بداية ، وهو مقام النفس الراضـــية ، وليست له نهاية لانه في ذلك كالربوبية لايتناهى . والعبـــودية هى التكليف الأصلى ، والعبادة هى التكليف الفرعى ، وبعبارة أدق .. العبادة هى الوسيلة ، والعبودية هى غاية العبادة .. وهذا ماتفيده الآية : « وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون » ومعناها ماخلقت الجن والانس الا ليصيروا لى عبيدا بوسيلة العبادة . وبعبارة أخرى ، ماخلقت الجن والانس الا ليعبدونى كماأمرتهم على السنة رسلى ، ليصيروا بتلك العبادة لى عبيدا كما أمرتهم على لسان ذاتى ، وذلك

حين قلت في مقام عزتي « ان كل من فى السموات والأرض الا آتى الرحمن عبدا * لقد احصاهم وعـدهم عدا * وكلهم آتيه يوم القيامة فردا » .

العبودية هى الحرية ..

الرضا بالله رباً مدخل على العبودية ، كما سلف القول ، ومن رضى بالله آثره على نفسه فاطرح مايريده هو رضـا بما يريده سيده . فقد قال أصحابنا « العبد موجود لسيده ، مفقود لنفسه » وقالوا « حقيقة العبـد أن يكون بين يدى الله كالميت بين يدى الغاسل ، يقلبه كيف شاء بلا اعتراض منه عليه » فالعبد لله لايقوم بخاطره اعتـراض على ارادة الله ، فاذا قام لايلبث أن يراجعه بالمراقبة أو بالمحاسبة ، ولاتستجيب النفس لهذا المقام الا اذا بلغ علمها حق اليقين ، فاطمأنت وسكنت ، لأستيثاقها ان الله أعلم بمصالحها منها ، وانه تعالى أقدر منها على توصيل المصلحة اليها ، وانه أرحم بها منها ، وأنه أولى بها منها ، من جميع الوجـوه ، ولايتفق هذا للنفس الا بتوفيق الله ، ثم بأدمان الفكر ، وبطول المران والرياضة والمجـاهدة ، وباتقان العـبادة بتجويد تقليد المعصوم ، وبالسلوك العملى فى حسن معاملة الناس ، والسعى فى مصالحهم ، حتى تجود «لا اله الا الله» تجويد تفريد ، فى اخلاص النية وحسن العمل وصفاء الفكر ، « اليه يصعد الكلم الطيب ، والعمل الصـالح يرفعه » « والكلم الطيب » « لا اله الا الله »

« والعمل الصالح » الصلاة ، والصلاة تعني المعاملة ـ المعاملة مع الرب بعدم الغفلة عنه •• والمعاملة مع الخلق بكف الاذى عنهم واحتمال الاذى منهم ، ثم بالاخلاص والنصح لهم وذلك بتوصيل الخير اليهم في المنشـــط والمكره ••

« الا لله الدين الخالص » الخالص من حظوظ النفس • فهو لايقبل غيره ، ولما كانت حظوظ النفوس كثيرة في حب المال والجاه والسلطة ، فقد زهد الزاهدون في كل أولئك لتقل حاجتهم منها ، ولتقتصر تلك الحاجة على الكفاف ليحرزوا بذلك اخلاص قلوبهم لله •• فهم يرون ان الحاجة رق ، وأنك كلما زادت حـــاجات نفسك كلما زاد رقك لتلك الحاجات ، وانت بذلك لاتكون خالصا لله ، ولايكون دينك خالصـــا لله ، وهو لايقبلك في رقه : فى عبوديته •• حتى يتم عتقك من اســـيادك التقليديين : العادات والأوهام والأباطيل ، التى تجعل الرجال والنساء عبيدا للشهوات والمطامح •

اننا قد تعلمنا أن الحياة تواجهنا بالخير والشر • والشر يتمثل فى الألم : الخوف والجوع والمرض والموت •• والخـــير يتمثل في اللذة : الأمن والشبع والصحة والحياة •• وقد دفعنا الخوف من الألم ان نستكثر من اللذة ؛ ومن وسائل اللذة ، حتى نجعل بيننا وبين مايؤلمنا امدا بعيدا ووقاية حصينة ، ومن ههنا جاء السعى وراء المال والحـرص على اكتنازه ، وجاء حب الحيـــاة والتعلق باســـباب السلطة •

ولقد دلت التجـــربة البشرية الطويلة ان الشر لا يمكن الاحتراز عنه والاعتصام منه بوسائل الحرص والجمع والاستكثار من الحطام ولا من الجاه والسلطان ، ذلك بأن الموت الذى هـو قمة الشرور لم تنجح فى توقيه حيلة المحتالين بوســائل الجمع ووســائل المنعة .

« اينما تكونوا يدركم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة » وفى الاسلام ابليس هو الشر المجسد ، وأعوانه من ابنائه ينشرون الخوف في قلوب الناس ويصدونهم عن السبيل ، « الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا والله واسع عليم » ، « يعدكم الفقر » يعنى يخوفكم عـواقب البذل « ويامركم بالفحشاء » يعنى البخل والحـرص والكنز ، وهذا الشر المجسد ، يحدثنا القرآن عن شأنه مع عباد الله فيقول « قال رب بماأغويتنى لازينن لهم فيالأرض ولاغوينهمأجمعين * الا عبادك منهم المخلصين * قال هذا سراط على مستقيم * ان عبادي ليس لك عليهم سلطان الا من اتبعك من الغاوين » .. قال ابليس « لازينن لهم في الأرض » يعنى لاحببن لهم البقـاء فيالأرض ولابغضن لهم الموت . وبحب الحياة وبغضالموت تكون كل الشرور والمآثم الاخرى ثم استدرك فقال « الاعبادك منهم المخلصين » لعلمه ان هؤلاء لاينطلى عليهم مكره ، فقال الحق في توكيد ذلك « هذا سراط على مستقيم » : أى حق أوجبته على نفسى .. وماهـو ذلك الحق ؟؟ « ان عبادى ليس لك عـليهم

سلطان » هم احرار من سلطان كيدك وتضليلك وتلبيسك ..
والحرية من كيد ابليس اشارة الى الحرية من أصل الشرور وهو
الخوف .

« ان الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان انما استزلهم
الشيطان ببعض ماكسبوا » استزلهم ساقهم الى الزلل ، وهو انما
يستزلنا ليسوقنا الى الذل في ظل الخوف .. والخوف هو الشر
كله وابليس هو تجسيد الخوف .

ولقد جعل الاسلام وكده محاربة الخوف و « رأس الحكمة
مخافة الله » تعنى ان بداية العلم ان تجمع مخاوفك كلها من الله
وحده ، لانه قال « قل لن يصيبنا الا ماكتب الله لنا ، هو مولانا
وعلى الله فليتوكل المؤمنون » والكلمة وهى « لا اله الا الله »
التى هى نهج الاسلام ، تعنى توحيد الخوف في مصدر واحد بعد
ان كان يأتى من كل جانب ، وفى توحيد الخوف قيمة تربوية
عظيمة .

ثم أن العبد يحارب خوفه من مصائب الحياة بالمجاهدة على
الرضا بالله كما سبق أن قلنا ، يقينا منه بأن الله أعلم بما يصلحه
منه ، وان المصائب حين تساق اليه انماهى صديق في الحقيقة ، فى
ثياب عدو فى الظاهر فقط ، وذلك لقصور علمنا ، « كتب عليكم
القتال وهو كره لكم ، وعسى ان تكرهوا شيئا وهو خير لكم ،
وعسى ان تحبوا شيئا وهو شر لكم ، والله يعلم وانتم لا تعلمون »

فاذا اتقنا المجاهدة في موطن الرضا ايقانا منا بأن شدة المصائب التى يسوقها الينا ربنا انما هى بمثابة مرارة الدواء الذى يكون فيه برء ادوائنا ، فان عناية الله تدركنا فتنقلنا بما تفتح لنا من فيوض المعرفة بالله الى منازل لايتصور فيها بلاء ، حيث نكون في سرادق الرضا ، فلا نلقى شيئا مما نكره ، وسبقت الى هذا الاشارة قبل قليل في هذه الرسالة .

فالعارف المجود للمعرفة ، السالك في مدارج العبودية لايخاف شيئا على الاطلاق .. هو لايخاف الله لان الله عند العارف المجود يحب ، ويطمأن اليه ، ويرتع فى بحبوحة أنسه .. نعم هناك ظل من الخوف خفيف ، وذلك عندما يمد العارف نظره الى الاطلاق ، ولكن هذا الخوف هو نتيجة المعرفة ، ونحن نتحدث آنفا عن الخوف الذى هو نتيجة الجهل .. فالخوف الذى هو معرفة ، هو أعلى ماتبلغ معرفة العارفين ، وعنده النعيم المقيم والخير المطلق ، وبه المزيد المستمر ، لان العارف فيه يتحقق بقوله تعالى « كل يوم هو في شأن » وشأنه تجديد حياته كل لحظة بانطلاقه في التطور ، بالاستزادة من كمال حياة الفكر وحياة الشعور ، وهو في ذلك ينشر الخير بين الناس كما تنشر الزهرة المعطار شذى عرفها .

أن العبودية هى الحرية .. لأنها حرية من الخوف . ووسيلة العبودية العبادة ، وفي قمة العبادة الصلاة .

ان الحديث هنا يقتضى فهم القرآن فهما جيدا ، وللاعانة على هذا الفهم لابد من تقرير امور أربعة :ـ

أولها ان الاسلام بداية ونهاية ، وهو في البداية أقل مـن مرتبة الايمان ، ومقتضاه قولك : لا اله الا الله محمد رسول الله : وعملك بالجوارح فيما امرت بالعمل فيه من عبـادات ، ومـن معاملات ، وآية الاسلام الذى هو بداية من كتاب الله : « قالت الاعراب آمنا ، قل لم تؤمنوا !! ولكن قولوا اسلمنا ، ولما يدخل الايمان في قلوبكم » •

والاسلام الذى هو نهاية ، أعلى من مرتبة الايمان ، ومعناه الاستسلام والانقياد الواعى الراضى بالارادة الالهية ، وآيته من كتاب الله : « ومن احسن دينا ممن اسلم وجهه لله وهو محسن ، واتبع ملة ابراهيم حنيفا واتخذ الله ابراهيم خليلا ؟ » وروح هذه الآية في عبارة « وهو محسن » لان العناصر كلها مسلمة وجهها لله ؛ ولكنها غير واعية ، والمســـلم هو الذى يكـون فى تمام استسلامه لله كالعناصر الصماء في عدم اعتراضه على الله ، ثـم هو واع وراض ومختار لهذا الاستســـلام ، ومن ههنا قيل ان العبودية أن تكون بين يدى الله كالميت بين يدى الغاسل يقلبه كيف شاء ، من غير اعتراض منه ، ولقد اسلفنا الاشـــارة الى ذلك •

وثانيها أن مجتمع البعث الأول اسمه الخاص به «المؤمنون» ،

عندما يوضـــع بازاء المجتمع اليهودى أو المجتمع النصرانى ، والقــرآن ملىء بذلك • « ان الذين آمنوا ، والذين هـــادوا ، والنصارى ، والصابئين ، من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم اجرهم عند ربهم ولاخــوف عليهم ولاهم يحزنون » وانه لم يأخذ اسم المسلمين الا من المعنى العام •• من الاسلام الذى هو بداية •• ولقد ندب مجتمع المؤمنين ليكونوا مســلمين فلم يطيقوا ، وذلك حيث قال تعالى « يأيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولاتموتن الا وأنتم مســلمون » ، فنزل الى مســـتوى مايطيقون ، وجاء الخطاب « فاتقوا الله ما استطعتم ، واسمعوا ، واطيعوا وانفقوا خيرا لانفسكم ومن يوق شح نفسه فاولئك هم المفلحون » •

وثالثها أن المجتمع المسلم حقا لم يدخل فى الوجود بعد، وسيجىء في مستقبل الايام القريبة ان شاء الله ، حيث تقوم المدنية الجديدة التى تحدثنا عنها هنا ، وفيها يبلغ ساير الافراد مرتبة الاســلام ، وهى مرتبة لم تتحقق في المجتمعات الماضيات الا للانبياء ، وحتى هؤلاء قصر عنها بعضهم كما يحدثنا القرآن : « انا انزلنا التوراة فيها هدى ونور ، يحكم بها النبيون الذين اســـلموا ، للذين هادوا ، والربانيون والاحـــبار بما استحفظوا من كتاب الله ، وكانوا عليه شهداء » ولسنا نريد الاطالة هنا لاننا سنصدر سفرا مستقلا في هذا المعنى ، وســـيكون عنوانه « العهـــد الذهبى

للاسلام امامنا » ولكننا نحب ان نقول اننا سنفهم القـرآن فهما أحسن من ذى قبل اذا عرفنا أنه عندما يخاطب المؤمنين انما يخاطب مرحلة معينة من مراحل سير الأمة الحاضرة نحو الأمة الاسلامية المستقبلة ، وهو حين يقول : « يأيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولاتموتن الا وانتم مسلمون » انما يطلب ان يرتقى أفـراد المجتمع المؤمن ، من مرحلة الايمان ، الى مرحلة الاسلام ، وهـو بذلك يدعو الى التطور المستمر في مراقى الكمال والتجـدد ، ولا يقر الناس على الثبات في مرتبة واحدة •

ورابع الامور التى لابد من تقريرها لتعين على فهم القرآن هو ان القـرآن كله مثانى •• كل آية فيه وكل كلمة بل وكل حرف •• والى ذلك الاشـارة بقوله تعالى « الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها ، مثانى ، تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ، ثم تلين جلودهم ، وقلوبهم الى ذكر الله ، ذلك هدى الله يهدى به من يشاء ، ومن يضلل الله فما له من هاد » ومعنى مثانى انه في معنيين اثنين معنى بعيد عند الرب ، ومعنى قريب ، تنزل من الرب الى العبد ، وعلى مستوى هذا الفهم للقرآن تحـدثنا آنفا عن آية « وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون » فقلنا الا ليكونوا لى عبيدا بوسيلة العبادة •• فكأن لكلمة « ليعبدون » معنى بعيدا هو العبودية ، ومعنى قريبا هو العبادة •

ومن مستوى هذه الامور الاربعة ، التى قررناها سنتحدث

عن الصلاة ، ومايتبعها ، فيما يلى من بقية هذه الرسالة •

للصـــلاة معنيان ••

فالصلاة لها معنى بعيد ، ولها معنى قريب •• ولقد خرجت الصلاة يوم المعراج عل مستويين من مستويات شهود النبى ربه ، والقرآن يقص علينا هذين المشهدين فيقول : « علمه شـــديد القوى * ذو مرة فاستوى * وهـــو بالافق الاعلى * ثم دنى فتدلى * فكان قاب قوســـــين أو ادنى * فاوحى الى عبده ماأوحى * ماكذب الفؤاد ما رآى * افتمارونه على مايرى * ولقد رآه نزلة أخرى * عند سدرة المنتهى * عنـدها جنـة المأوى * اذ يغشى السدرة مايغشى * ما زاغ البصر وما طغى * لقد رأى من آيات ربه الكبرى » •

فأما المشهد الأول فهو مشهد اسمائى ، وأما المشهد الثانى فهو مشهد ذاتى •• يقول تعالى عن نفســـه « كل يوم هو في شأن » وشأنه ابداء ذاته لعباده ، وهذا الابداء انماهو تنزل من بهموت الذات الى مراتب العباد ليرقوا في معارج هذه التنزلات الى حضرة الذات •• فالله تعالى يقول عن تنزلاته الى عبـاده : «وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ، ، ونزلناه تنزيلا » فالقرآن هو الذكر في مقام الجمع ، والفرقان هو الذكـــر فى مقام الفرق •• ومقام الفرق هو التنزلات الى مرتبة الصفة ومرتبة الفعل ، والى هذه المراتب الاشارة بقوله « ونزلناه تنزيلا » يعنى

تنزيلا من بعد تنزيل في المراتب لتكون للعارفين معارج يطوون فيها المراتب ، مرتبة بعد مرتبة ، حتى يقفوا على عتبة الذات .

« وبالحق انزلناه ، وبالحق نزل ، وما ارسلناك الا مبشرا ونذيرا » « وبالحق انزلناه » يعنى الذكر . وانزلناه الى مقام الجمع وهو القرآن . « وبالحق نزل» الى مقام الفرق ، وهو الفرقان .. والذكر في مقام جمع الجمع ،وهو مقام الاسم مما يلى الذات ، والقرآن مقام الجمع ، وهو مقام الاسم ممايلى الصفات ، والفرقان مقام الفرق ، وهو التعدد ، وادناه الثنائية ، وهو مقام الصفة ومقام الفعل .. ومقام الفعل اعلاه مقام توحيد ، وادناه مقام شرك ــ مقام تعدد ــ وذلك عند بروز الاكوان من المكون بأثر الفعل .. فمن شغلته المخلوقات عن الخالق فهو مشرك ، ومن رأى من وراء فعل المخلوقات فعل الله فهو موحد ، وفى الحق ، ان التوحيد كله في مقام « وحدة الفاعل »، وهو ما عنيناه بعبارة « رآى من وراء فعل المخلوقات فعل الله » .

والرسالة تنزل الى ادنى درجات التعدد ، وخاصة في وجهها الجلالى .. وجه الانذار .. وغرضها جمع الناس على الله من التفرق في التعدد ، والى ذلك تشير عبارة « وما ارسلناك الا مبشرا ونذيرا » .

والتوحيد كله في مرتبة وحدة الفاعل ، لأنها مرتبة الشرك الخفى .. ولن يخلص العبد من الشرك الخفى اطلاقا ، لانه يدق

حتى يصبح أدق من الشعرة وأحد من السيف ، ثم لاينتهى ، وهو الحجاب القايم بين الوحدة المطلقة ، التى هى حظ الرب ، والوحدة النسبية التى هى حظ العبـد .

ومرتبة الفعل هى مرتبة « الواحدية » ، والواحدية صـفة الاله : « والهكم اله واحد لا اله الا هو الرحمن الرحيم » وفي الحق ، ان الناس لم يجحدوا الله وأنما جحدوا الاله ، وهو تنزل الله الى مرتبة الفعل في المستويات الصغيرة التى يقع الشبه فيها ويسود اللبس .. وهذه هى مسـتويات الشرك الخفى عندما تتداعى الى الخفاء .. اسمع القرآن يحدثنا في هذا المعنى : «ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ، وسخر الشمس والقمـر ، ليقولن الله ، فأنى يؤفكون ※ الله يبسط الرزق لمن يشاء مـن عباده ويقدر له ، ان الله بكل شيء عليم » كأنه يقول : ان الاعمال الكبيرة الظاهرة التى يستحيل عليهم ان يشاركوا فيها ، كخلق السموات والارض ، ينسبونها لله ، ولكن الاعمال الصغيرة التى لهم فيها في ظاهر الامر مشاركة ينسبونها لانفسـهم .. أو كأنه يقول : اذا سألتهم من خلق السموات والأرض يقولون خلقهن الله ، واذا سألتهم من يرزقكم يقولون سعينا واجتهادنا ـ إن لم يكن قولهم هذا بلسـان مقالهم ، فانه على التحقيق ، قولهم بلسـان حـالهم .

وكل الشرك في مسألة الرزق ، ولقد قال العـارفون ان

الانسان يفر من أجله ، ويجـــرى وراء رزقه ، وفى الحق ، ان الاجل والرزق يطلبان العبد طلبا حثيثا ، وهو لن يعجز أجله هربا، وهو لن يعجز رزقه هربا بنفس القــدر •• فاذا تم يقين العبــد بالرب ، يعلم ان ماقدر لماضغيه ان يمضغاه لابد أن يمضغاه ، وان هــــرب منــه •

فالآية الثانية تخبرنا أن الذى خلق السموات والأرض هو نفسه الذى يبسط الرزق للعباد •• فالخالق واحد لكبير الأعمال وصغيرها •• اسمعه يقول « ام جعلوا لله شركاء خلقوا كخــلقه فتشابه الخلق عليهم ؟ قل الله خالق كل شىء وهو الواحدالقهار» •

ومرتبة وحدة الفاعل أول مــراتب تجليات الذات مما يلى العبد •• أو قل هى أول مراتب العروج الى الله ذى المعارج • والمرتبة التى تلى وحدة الفاعل هى وحدة الصــــفة وهى مرتبة « الاحدية » والاحدية صفة الله « قل هو الله أحد » والمرتبة الثالثة وهى التى تلى مرتبة وحدةالصفة هى مرتبة وحدة الاسم ، وهو « الله » وليس وراء هذه المرتبة الا الذات الصرفة •

ومعنى الواحد الفرد الذى لاينقسم ، وهو أول مــراتب التفريد •

ومعنى « الاحد » •• الذى لم يجىء من مثله ، ولا يجىء منه مثله ، أو هو الذى « ليس كمثله شىء » وهو أوسط مراتب التفــــريد •

ومعنى « الله » .. الذى يجل ، ويتعالى ان يكون له معنى ، ولكنه ، مما يلى الخلق ، هو متعلق الصفات ومما يلى الذات ان هو الا أشارة الى الذات الساذج ، الصرف ، التى تجل عن أن تسمى ، أو أن توصف .

ومعنى أنه متعلق الصفات ، انه علم على اول تنزل من صرافة الذات ، وهو اعلى مراتب التفريد . وهذه المراتب الثلاث ، وعديد المراتب التى دونها ، هى من جهة الذات تنزل ، ومن جهة العبد معراج ، فالمعراج تنزل درجات سلم الذات ليرقى عليها العبد درجة ، درجة . والمعراج قطع هذه الدرجات ايضا ، وقد قلنا ان النبى فى المعراج شاهد ربه على مستويين ، فاما الشهود الاول ، فهو شهود اسمائى ، واما الشهود الثانى ، فهو شهود ذاتى .. والشهود الاسمائى هو هذا الذى فصلناه في المراتب الثلاث .. فالشهود الاسمائى هو شهود تجليات الذات فى الخلق فقد شاهد النبى التجليات الالهية فى جبريل . والقرآن يقص علينا فى هذه الآيات من سورة « والنجم » وقد اوردناها آنفا .. « علمه شديد القوى » جبريل « ذو مرة ، فاستوى » وصف لجبريل بالشدة ، ومعنى « فاستوى » فى صورته التى خلقه الله عليها ، وهى أعلى ما يكون جبريل مظهراً للتجلى الاسمائى ، والى ذلك الاشارة بقوله تعالى « وهو بالأفق الأعلى » مما يلى الذات « ثم دنى فتدلى » تنزل فى التجلى الاسمائى الى مرتبة الصفة ثم الى مرتبة الفعل ، حيث استقر « فكان قاب قوسين

أو ادنى » • وفى هذا الثالوث أشارة لطيفة الى العقل ، لا يتسع المقام لاســتقرائها ، « فاوحى الى عبده ما اوحى » : فاوحى جبريل الى عبد الله محمد ما أوحى •

هذا التفصيل فيما يخص المشهد الأسمائى • واما المشهد الذاتى فقد أخفى فى سياق عبارات القرآن ، لانه فوق العبارة ، ولا تسعه الا الأشارة • وقد جاءت عبارة ، هى نهاية فى الدقة ، وفى الايجاز ، وفى القيمة السلوكية للسالكين لتشــير الى هذا الشهود الذاتى اشارة ســلوكية ، وتلك هى آية « مازاغ البصر وما طغى » ولما كانت سدرة المنتهى هى نهاية الشهود الشفعى ، أو « الثنائى » وبداية الشــهود الوترى أو « الفردى » فقــد اخبرنا القرآن عن ذلك فقال : « اذ يغشى الســدرة ما يغشى » من طــرف التجلى الذاتى ، بلغ النبى مقام « مازاغ البصر وما طغى » ، والبصر هنا والبصيرة شىء واحد ، لأن هذا مقام التوحيد ، وهو يعنى الفكر و « مازاغ » يعنى ما رجع فانشغل بالماضى ، و « ماطغى » يعنى ما انشغل بالمستقبل ، فكأن النبى ، من فرط ما غشيه من الشهود الذاتى ، قد استغرق ، واخذ من جميع اقطاره ، حتى أصبح وحدة ذاتية ، في وحدة مكانية ، فى وحدة زمانية ، وبهذا التوحيد ، الكامل الشــامل ، خرج عن الزمان ، والمكان وتحرر منهما ، فشاهد من ليس يحويه المكان ، ولا الزمان •• شاهد الله ، شــهودا ذاتيا ، ليس للعبارة فيه مجال • وهنا فرضت الصلاة بمعناها البعيد •• فرضت بلسان

الحال ، لأن لسان المقال هنا أخرس • ولم يكن جبريل حاضراً هذه ، وانما كان جبريل حاضراً فرض الصلاة بالمعنى القريب •

والصلاة ، بالمعنى القريب ، هى الصـــلاة الشرعية ، ذات الحركات المعروفة • ولقد فرضت فى مقام « قاب قوســين أو ادنى » وهو مقام الشهود الاسمائى ، والشهود الاســمائى وسيلة الى الشهود الذاتى • فان العبد المترقى يشاهد وحــدة الفعل ، ثم يترقى منها الى شهود وحدة الصفة ، ثم يترقى منها الى شهود وحدة الاسم ، وليس وراء ذلك الا شــهود الذات ، وليس فى شهود الذات مقام ، وانما هى المامة خاطفة ، وجمعية مستغرقة ، ينادى عندها منادى الطبيعة البشرية « يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا » • ثم يكون تنزل العبد راجعا فى درجات معراجه ، فيكون مما يليه ، فى حالة التنزل ، شهود وحدة الاسم ، ثم وحدة الصفة ، ثم وحدة الفعل ، فكأنه شاهد ، فى العروج ثم فى التنزل بعد العروج ، كل مشهد مرتين ، ولكن بصـــورتين مختلفتين ، لأن التكرار ممتنع فى تلك المقامات ، فانه « كل يوم هو في شأن » • وكل المشاهد ، فى حالة التنزل ، أعظم منها فى حالة العروج ، ولذلك فقد فرضت الصلاة خمســين فى مقام « قاب قوسين أو ادنى » فى حالة المعراج ، وخففت الى خمس فى مقام « قاب قوسين أو ادنى » فى حالة التنزل من المعراج ، والسر فى التخفيف ، ان النبى بعد شهود الذات أصبح اعرف بالله منه قبلها ، والعارف مخفف عليه دائما ، على قاعـــدة ،

« ما يفعل الله بعذابكم ان شكرتم وآمنتم ، وكان الله شاكراً عليما ؟ »

فى مقام الشهود الذاتى فرضت الصلاة بالمعنى البعيد ، وهى الصلة مع الله بلا واسطة ، فى مقام « مازاغ البصر وماطغى » ، حيث تطمس من العبد ذاته المحدثة ، وتبقى ذاته القديمة فى صلة مع القديم ، لا يفصلها وسيط ، ولا تقوم بينهما وسيلة ، وهناك تسقط الوسايل والغايات ، ولا يبقى الا الواحد ، « وليس لسفن العبارة ههنا نصيب » • ولم يكن جبريل حاضراً ، لانه لا مقام له فى شهود الذات ، وذلك لانه لا ذات له — لانفس له — بها يطيق انوار التجلى الذاتى ، وهذا ما جعل ساير البشر ، فى مآلهم ، اكمل من خاصة الملائكة •• فكمال الملائكة على البشر كمال درجة ، وكمال البشر كمال نشأة ، وهذا معنى قول المعصوم « ان لم تخطئوا وتستغفروا فسيأت الله بقوم يخطئون ويستغفرون فيغفر لهم » •

وجاء تخلف جبريل لسبب آخر ، هو أن وجود جبريل يجعل النبى شفعا ، ولا يصلح الشفع فى مشاهدة الوتر • وفى مقام الشهود الاسمائى فرضت الصلاة بالمعنى القريب •• الصلاة الشرعية ، وقد كان جبريل وسيطا فيها ، وقد جاء بكيفيتها ومواقيتها ووضوئها الى النبى فى مكة ، وعلمه كيف يصلى •• وليس معنى هذا أن النبى لم يكن على صلاة قبل المعراج ، بل انه ، على التحقيق ، قد كان على صلاة قبل البعث ، منذ ان كان

يتحنث فى غار حراء ، ولكن صورة صلاته القديمة صححت بعد المعراج ، فجاءت الصلاة التى نعرفها اليوم ، وجعلت معراجا ، له بالاصالة ، ولأمته بالتبعية • وهى معراج الى المقام المحمود ، الذى قامه بين يدى ربه فى مشهد ، « مازاغ البصر وماطغى » • وقد قال تعالى فى حق نبيه « ومن الليل فتهجـــد به نافلة لك ، عسى ان يبعثك ربك مقاماً محمودا » •

التقليـــــد

« صلوا كما رأيتمونى اصلى » !! هكذا امر النبى فى تبليغه رسالة ربه • فالصلاة معراج النبى بالاصالة ، ومعراج الامـــة من بعـــده بالتبعية ، والتقليد •• وكلمة « رأيتمونى أصـــلى » لها معنى بعيد ، ومعنى قريب •• فاما معناها البعيد ، فهـــو ان نرى بعين البصيرة حالة قلب النبى من صدق التوجه ، حين يقوم لصلاته • فهو حين يقول الله اكبر ، فى احرامه ، لا يكون فى قلبه اكبر من الله ، لانه حرر نفســـه من علائق الدنيا بتقليل حاجته منها ، وبزهده فيها ، وهذا ما اشرنا اليه آنفا فى مقام العبودية واما معناها القريب ، فهو ان نرى بعين البصر حـــركات النبى الظاهرة في صلاته فنتقنها أيضـــا •• فنحن بدون ان نراه بعين البصيرة وبعين البصر •• وبعبارة أخرى بدون ان نعرف حالة قلبه ، وحركات جسده ، لا نكون قد رأيناه •• واذا صـــلينا بمحاكاة حركات الجسد ، بدون محاكاة صـــدق توجه القلب ، لا نكون اطعنا عبارته « صلوا كما رأيتمونى اصـــــلى » وآفة

صلاتنا الحاضرة اننا ذهلنا عن هذه الرؤية المزدوجة ، فاصبحنا نتقن حركات الصلاة ، ولكن قلوبنا شاردة • فنحن ، حين نقوم باجسادنا فى مساجدنا ، نكون بقلوبنا فى السوق ، أو فى الشارع أو فى الاماكن العامة •• ونحن ، حين نقول اللهاكبر فى احرامنا يقول مناد من قبل الحق كذبتم •• لستم بها صادقين •• وانما المال أكبر ، أو الجاه أكبر ، أو السلطة أكبر من الله فى قلوبكم • وبذلك لا تكون صـــلاتنا صـــلاة ، ويحق فينا قوله تعالى : « فويل للمصلين ، الذين هم عن صلاتهم ساهون * الذين هم يراؤون ويمنعون الماعون » ســماهم المصــلين ، لأن حركاتهم حركات مصل • ثم قال فيهم انهم عن صلاتهم « ساهون » يعنى غافلون عن حقيقة صلاتهم ، وهى التى تقوم فيها الصلة بين الله وبينهم وذلك بحضور قلوبهم فيها •• ولذلك قال « الذين هم يراؤون » أى يهتمون بالظاهــر ويهمــلون الباطن « ويمنعــون الماعون » • والماعون يعنى القلب •• يمنعونه من الله ان يكون فيه ، ويملأونه باصنام حب الجاه والمال والسلطة •

وقد قال المعصوم : « رب مصل لم يقم الصلاة » !! هــو مصل ، حسب ظاهر حركاته ، ولم يوف الصلاة حقها بحضور القلب فيها ، فكأن صلاتك فى صلاتك هى حضورك مع ربك فيها ، طال هذا الحضور ، اثناء صلاة الحركات ام قصر ، وليس ماعدا ذلك صلاة ، وان كان قيام الليل كله •

ويحدثنا القرآن فيقول « قل ان كنتم تحبون الله فاتبعونى

يحببكم الله » فهل يظن أحد ، انه يمكن ان نحوز حب الله ، اذا أتبعنا النبى في ظاهر أمره من الحركات والسكنات ، ثم أهملنا الاتباع الباطنى ؟؟ ويقول القرآن « ما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » وكذلك الفهم هنا •• فان الرسول آتانا بالمعنى القريب ، وبالمعنى البعيد •• أما بالمعنى البعيد ، فقد آتانا اشياء بلسان حاله ، واما بالمعنى القريب ، فقد آتانا اشياء بلسان مقاله •• فما آتانا اياه بلسان حاله ، فهو سنته ، وما آتانا اياه بلسان مقاله ، فهو شريعته •• ولسان مقال النبى صادق ، ولسان حاله صادق ، ولكن لسان حاله أصدق من لسان مقاله ، لأن الحقيقة فوق العبارة • قال المعصوم : « قولى شريعة وعملى طريقة وحالى حقيقة » وحاله هو سنته •

الأصالة ••

اذا فهمنا هذا ، يتضح لنا أن المعصوم ، حين قال : « صلوا كما رأيتمونى اصلى » كأنما قال بلسان العبارة « قلدونى فى صلاتى باتقان ، وبتجويد ، حتى يفضى بكم تقليدى الى ان تكونوا أصلاء مثلى » ، أو كأنه قال : « قلدونى بأتقان ، وبتجويد وبوعى تام ، حتى تبلغوا ان تقلدونى فى اصالتى » •• غير انه ليس فى الاصالة تقليد •• ولكن فيها تأس « لقد كان لكم فى رسول الله اسوة حسنة » « اسوة » قدوة فى كمال حاله •

فالنبى آتانا بلسان الشريعة ــ لسان المقال ــ امرا بالتقليد ، وآتانا بلسان الحقيقة ــ لسان الحال ــ امرا بالاصالة

.. ولا تكون الاصالة الا بعد تجويد التقليد .. فالاصالة غاية من تقليدنا النبى ، وليس التقليد غاية فى ذاته .

والمعراج الاكبر ، الذى ارتفع فى مراقيه المعصــــوم ، بتوفيق الله ، ثم باعانة جبريل له ، قد ظل تحقيقههدف المعصوم فى جميع حياته ، بوسيلة معراجه الاصـــغر ــ الصلاة ــ وقد جعل الله له قرة عينه فى الصلاة ، لأن فيها تتحقق الجمعية بربه كل حين ، وبها تقطع ، عند كل ركعة ، مرحلة جديدة ، من مراحل القرب الى المقام المحمود .. مقام « مازاغ البصر وما طغى » . وهذا المقام يجب ان يظل هدف كل مصل من هذه الامة ، لأن به تمام المعرفة ، وكمال الشهود ، وهو الشهود الذاتى ، الذى يرقى فوق الشهود الاسمائى ، كما اسلفنا القول ، ولانه مقام تحقيق الفردية ، ولانه مقام الاستمتاع بالحرية الفردية المطلقة ، التى ورد ذكرها كثيرا فى هذه الرسالة .

لقد تحدثنا فى آيات سورة « والنجم » التى اوردناها آنفا عن سدرة المنتهى ، حيث تخلف جبريل عن المعصوم ، وسار النبى بلا واسطة لحضرة الشهود الذاتى ، لأن الشهود الذاتى لا يتم بواســـطة ، وقد كان تخلف جبريل عن النبى لانه لا مقام له هناك ، والنبى ، الذى هو جبريلنا نحن ، يرقى بنا الى ســدرة منتهى كل منا ، ويقف هناك ، كما وقف جبريل ، بيد انه انما يقف لكمال تبليغه رسالته ، ولكمال توسيله الى ربه ، حتى يتم اللقاء ، بين العابد المجود وبين الله بلا واسطة . فيأخذ كل عابد مجود ،

من الامة الاسلامية المقبلة ، شريعته الفردية من الله بلا واسطة ، فتكون له شهادته ، وتكون له صلاته وصيامه وزكاته وحجه ، ويكون ، فى كل اولئك ، اصيلا ، ويكون ، فى كل اولئك ، متأسيا بالمعصوم فى الاصالة •• وانما يتم كل ذلك بفضل الله ، ثم بفضل كمال توسيل المعصوم الى ربه •• ذلك لمن جود التقليد • والى هذه الاصالة الاشارة بقوله تعالى « لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ، ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ، ولكن ليبلوكم فيما آتاكم فاستبقوا الخيرات ، الى الله مرجعكم جميعا ، فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون »

كون السياق اخبارا عن الامم فهو واضح ، ولكنه اخبار عن الافراد أيضا ، وهو فى باب الفردية أدخل منه فى باب الاممية « لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا » : لكل فرد منكم جعلنا « شرعة » •• يعنى شريعة ، « ومنهاجا » يعنى سنة • « فشرعة ومنهاجا » •• يعنى شريعة وحقيقة •• فشريعة العارف طرف من حقيقته ، وهو فردى الحقيقة ، فردى الشريعة ، وشريعته الفردية فوق الشريعة العامة بما لا يقاس « ولو شاء الله لجعلكم امة واحدة » يعنى لجعلكم على شاكلة واحدة ــ والامة هنا تعنى الفرد •• قال تعالى « ان ابراهيم كان أمة ، قانتا لله ، حنيفا ، ولم يك من المشركين ، شاكرا لانعمه ، اجتباه وهداه الى سراط مستقيم » فأمة هنا تعنى اماما يقتدى به « ولكن ليبلوكم فيما آتاكم » ولكن ليختبر كل فرد فيما آتاه من النعم المودعة فى قلبه

وعقله ، ماذا فعل فيها ؟؟ هل زكاها ؟ يعنى نماها وحــررها ام دساها ؟ يعنى اهملها واخملها « فاســتبقوا الخيرات » المعارف « الى الله مرجعكم جميعا » وهنا دليل الفــردية فى الآية لأن الناس لا يرجعون الى الله الا فرادى « ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم اول مرة » • وكما قلنا ذلك عند الحديث عن الفردية ونزيد هناقوله تعالى « وكل انسان الزمناه طائره فى عنقه ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا ، اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حســـيبا » « الزمناه طائره فى عنقه » طائره يعنى قلبه « ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا » يعنى قلبه أيضـا و « اقرأ كتابك » يقرأ ماكتبه عقله على صفحات قلبه من جهالات أو معارف و « كفى بنفسك اليوم عليك حســيبا » الفردية فيها ظاهــــرة •

« فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون » معناها يجعلكم تحققون فردياتكم التى بها يقع الاختلاف أو قل التمايز بينكم •

الامر فيما يخص التقليد والاصــالة بايجاز هو هكذا :ـــ

الله تبارك وتعالى هو الساير امامنا جميعا ، ولكن مواضـــع اقدامه خفية لا ترى الا بنور قوى ، لم يكن يملك هذا النور غير جبريل فسار يضع اقدامه على مواضع اقدام الله تماما وبدقة •• ومواضع اقدام جبريل خفية ايضا ، لا ترى الا بنور قوى ، لم يكن يملكه غير محمد ، فسار محمد يضع اقدامه على مواضـــع

اقدام جبريل تماما ، وبدقة ، ويحاول جاهدا ان يوضح مواقع اقدام جبريل بضغط اقدامه هو عليها ، فاصبحت واضحة لكل منا على صور متفاوتة .. وادنى هذه الصور وضوحا ، واضح بشكل كاف ، ليتبعه من هـــذه الامة اقلهم نورا ، ولكن بعض الناس اكتفى بالسير خلف النبى ، من غير ان يهتم بمواقع الاقـدام ، فذلك هو المقلد العادى ، وبعضهم اهتم بان يسير خلف النبى ، وبأن يضع أقدامه في مواضع اقدام النبى ، بضـبط واتقان ، حتى لا يزيد اثر قدمه على اثر قدم النبى ، ولا ينقص عنه ، حيث امكنه ذلك ، فذلك المقلد المجود للتقليد .

ثم انه ، بفضل هذا الاتباع ، انعكست الانوار المحمدية على المقلدين ، كل على حسب بلائه ، فاصـــبح نظره يقوى حتى استطاع ان يرى مواقع اقـدام جبريل ، التى كانت خفية عنه فى أول امره ، ثم سار فى اتقان تقليده ، حتى رأى مواقع اقدام الله التى كانت خافية على محمد ، فأخذ يوضـــحها له جبريل بسيره عليها ، وسار محمد بسير جبريل ، حتى قوى ، فاستقل بالرؤية والاتباع .

فاذا رأى المقلد ، المجود لتقليد النبى ، مواضع الاقـدام الالهية فأنه يستقل بالرؤية وبالاتباع . فيكون في آخر امـره ، وبفضل اتقان تقليد النبى ، مقلدا لله بلا واسطة النبى .

وتعالى الله عن الاقدام الحسية ، بالصورة التى نعرفها نحن وانما مواضع اقدامه مرامى الحكمة الخفية ، الباطنة ، فى أرادته

تلك الحكمة ، التى خفيت ودقت ، ولطفت ، حتى اصبحنا نسير امامه تبارك وتعالى ، وننتظر منه ان يتبعنا هو ، لفرط جهالتنا وغفلتنا ، وذلك حين نختار أرادتنا على ارادته ، ونسخط ، فى سـبيل ذلك الاختيار ، على ارادته هو « سبحانه وتعالى عما يشركون » ان تقليدنا لله تعالى ، معناه سيرنا على مواضع ارادته بتبعية ، واستسلام ، وتلك هى العبودية ، التى تحدثنا عنها كثيرا هنا ، وقلنا انها هى التكليف الاصلى ، « وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون » • يذكرنى هـذا الحديث بأبيات المربى الحكيم ، شيخ الطائفة الصوفية ، ابو القاسم الجنيد اذ يقول :

تطهـر بمـاء الغيب ، ان كنت ذا سر
والا تيمم ، بالصعيد ، وبالصـخر

وقـدم اماما ، كنت انت امامـه ،
وصل صـلاة الفجر ، فى اول العصر

فتلك صـلاة العـارفين بربهم
فان كنت منهم ، فانضـح البر بالبحـر

ولسنا ، في هذه الرسالة ، بصدد شرح هذه الابيات ، وانما يهمنا منها فى هذا المقام :ـ

وقدم اماما ، كنت انت امامه ، وصل صـلاة الفجر ، في أول العصر ، « قدم اماما » يعنى الله « كنت انت امامه » كنت في حالة جهلك تقدم نفسـك عليه ، وتجعله وراء ظهرك ، كناية عـن اختيارك ارادتك على ارادته ، وسخطك على ارادته • « وصـل

صلاة الفجر » يعنى فجر الروح ، قبل خلق الاجساد ، « في أول العصر » يعنى أول عصر الخليقة ، في عالم الاجساد ، وذلك عالم الذر الذى قال تعالى عنه « واذ أخـذ ربك من بنى آدم ، مـن ظهورهم ، ذريتهم وأشهدهم على انفسهم ، ألست بربكم ، قالوا بلى !! شهدنا ! ان تقولوا يوم القيامة انا كنا عن هذا غافلين — اوتقولوا انما اشرك آباؤنا ، من قبل ، وكنا ذرية من بعـدهم ، أفتهلكنا بما فعل المبطلون ؟ — وكذلك نفصل الآيات ، ولعـلهم يرجعـون » ••

وقوله هنا « ألست بربكم ؟ قالوا بلى ! » يعنى اقرار الخلائق قبل الاجساد بالعبودية وقوله « أن تقولوا يوم القيامة انا كنا عن هذا غافلين » اشارة الى الغفلة التى استولت على الناس فاذهلتهم عن عبوديتهم لربهم ، وجعلتهم يقدمون انفسهم عليه كما وردت الاشارة في ابيات الامام الجنيد وقوله « وكذلك نفصل الآيات ، ولعلهم يرجعون » كقوله « ولقد يسرنا القرآن للذكر ، فهل من مدكر ؟ » والمقصود اننا جعلنا آيات القـرآن ممهدة ، لتذكـير الغافلين عن الميثاق ، الذى التزموه بالاقرار بعبوديتهم لربهم في عالم الذر ، في أول عصر خليقتهم ، حين قالوا بلى شـــهدنا فى الاجابة على سؤال الرب « ألست بربكم ؟ »

و « صل » هنا معناها « أتبع » • والمصلى هو الذى يجىء

في صلى المجلى •• فالمجلى الأول ، والمصــلى الثانى ، وفى ذلك يقول شـــــاعرهم :

انا بنى نهشل ، لاندعى لاب عنه ، ولاهو بالابناء يشرينا
ان تستبق غاية يوما لمكــرمة تلق السوابق منا والمصلينا

يتضح من هذا كله ، ان تقليدنا للنبى يقوى عقولنا ، لنصبح قادرين على ان نقلد الله ، ولذلك فقد قال المعصوم « تخــلقوا باخلاق الله ، ان ربى على سراط مستقيم » وتقليدنا لله معناه ان نســير خلفه ، ولاننقــدم عليه فنجعله خلفنا ، تعالى عن ظن الجاهلين •• وسيرنا خلفه هو العبودية ، التى هى أعلى مبلغ يبلغه الانسان ، وقد تحدثنا عن العبودية بما يكفى في هذا المقام •

الصلاة بين المؤمن والمسلم

ماذا يكون من امر آية « ان الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا » ؟؟ فاســمع اذن •• المقصود هنا الصــلاة الشرعية و « كتابا موقوتا » يعنى فرضا له أوقات يؤدى فيها ، و « على المؤمنين » مرحلة أمة البعث الأول ، وهى الامة التى نعيش الآن في أخريات ايامها ، وقد ندبت لتواصل سير ترقيها وتطــورها الى « أمة المسلمين » وذلك حين قال تعالى « يأيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ، ولاتموتن الا وانتم مسلمون » فعجزوا عن ذلك ، فنزل الى مستوى طاقتهم ، فخوطبوا بقوله تعالى « فاتقوا الله ما أستطعتم ، واسمعوا ، وأطيعوا ، وأنفقوا خيرا لانفسكم ،

ومن يوق شح نفسه فاولئك هم المفلحون » وظل الأمر ، بالتطور، والترقى ، والارتفاع من « أمة المؤمنين » الى « أمة المسـلمين » قائما ، حيث المطلوب اليوم بروز الأمة المسلمة من الأمم الحاضرة، التى قد انفقت قرابة أربعة عشر قرنا ، في التجـارب البشرية الخصبة ، فى معترك الحياة المادية والفكرية ، وان بعدت الشقة ، بين هذه الامم وبين الدين في جميع صوره ، واصبحت بذلك فى جاهلية جديدة ، هى أرقى من جاهلية آمة البعـث الأول بآماد بعيدة ، وهذه الجاهلية الجديدة ، هي ما أسميناها ، في صدر هذه الرسالة ، بالمدنية الغربية الآلية الحاضرة التى نعيش جميعا على هداها ، والتى قلنا انها عملة ذات وجهين • وجه حسن ، ووجه دميم • وقلنا انها تطلب السلام اليوم طلبا حثيثا ، وإنها لابد لها من اعتناق الاسلام لتحقيق حاجتها الى السلام •• وسيكون دخول امم المدنية الغربية الحاضرة الاسلام ضربة لازب ، وسـيبدأ اسلامها من الاسلام الذى هو بداية ، ثم تمر على مرتبة الايمان ، وهو مقام أمة البعث الأول ثم يطرد ترقيها بوسائل العبادات، ووسائل المعاملات ، وعلى قمتها الصلاة ، حتى ترقى برقى افـرادها الى مرتبة الاسلام ، التى لم يحققها الا افراد ، من لدن آدم ، وقد قصر عنها حتى بعض الأنبياء •• فكل مسلم لابد له ان يمر بمرحـلة المؤمن ، قبل ان يتخطاها بالمزيد من الايمان ، والمزيد من العلم ، حتى يبلغ مرحلة الايقان ، والايقان على مراتب ثلاث •• مرتبة علم

اليقين ، ومرتبة عين اليقين ، ومرتبة حق اليقين . والقرآن يقول في ذلك « كلا لو تعلمـــون علم اليقين * لترون الجحيم * ثم لترونها عين اليقين * ثم لتسألن يومئذ عن النعيم » ويقـــول في حق اليقين من سورة الواقعة : « ان هذا لهو حـــق اليقين * فسبح باسم ربك العظيم » والاشارة بهذا الى « انه لقـــرآن كريم » التى سبقت في السياق هاتين الآيتين .. فحق اليقين هو القـــرآن .

ولاتكون مرتبة الاسلام قبل بلوغ مرتبة حق اليقين ، هذه ، كما ســـلف القول ، وكلما زاد العلم كلما زاد اليقين فاطمأنت النفس ، وسكن القلب ، فكان الرضا وكان الاسلام . والايمان لاينفك سايرا نوره امام الســالك في مراقى الأسلام ذلك بأن كل درجة يبلغها ويســتيقنها اليوم انما كانت في منطقة الايمان بالأمس ، وهى لاتصبح منطقة يقين حتى يرتفع ايمانه الى منطقة جديدة ، كانت قبلا خارجة عن الاعتبار .. فالايمان هو مقدمة الايقان .. أو قل هو عكاز الاعمى ، يتحسس به مواقع قدميه ريثما ينقلهما لأمام على بصيرة ما ، والصلاة الشرعية هى العمـــل الذى يرفع الايمان ، ومن ورائه الأيقان ، في المـــراتب المختلفة ، وقد أوردنا فى ذلك قوله تعالى « اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه » .

ويصبح شأن الآية « ان الصلاة كانت على المـــؤمنين كتابا

موقوتا » مع المسلم ، الذى يمر بمرحلة الايمان ، الذى هو مرتبة الأمة الأولى ، ان الصلاة الشرعية ، في حقه ، فرض له أوقات يؤدى فيها ، فاذا ارتقى : بحسن ادائها بتجويده تقليد المعصوم ، حتى ارتقى في مراقى الايقان ، التى ذكرناها ، حتى بلغ حق اليقين ، وسكن قلبه ، واطمأنت نفسه ، فأسلمت ، طالعه المعنى البعيد لكلمة « موقوتا » في الآية « ان الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا » وذلك المعنى ، فى حقه هو ، ان الصلاة الشرعية فرض ، له وقت ينتهى فيه ، وذلك حين يرتفع السالك الى مرتبة الأصالة ، ويخاطب بالاستقلال عن التقليد ويتهيأ ليأخذ صلاته الفردية ، من ربه بلا واسطة تأسيا بالمعصوم •• فهو ، حينئذ ، لاتسقط عنهالصلاة ، وانمايسقط عنهالتقليد ، ويرفع من بينه وبين ربه ، بفضل الله ، ثم بفضل كمال التبليغ المحمدى ، الحجاب الاعظم •• الحجاب النبوى •

ان الاسلام ، في حقيقته ، ليس دينا بالمعنى المألوف فى الاديان ، وانما مرحلة العقيدة فيه مرحلة انتقال الى المرحلة العلمية منه •• مرحلة الشريعة فيه مرحلة انتقال الى مرتبة الحقيقة •• حيث يرتفع الافراد ، من الشريعة الجماعية ، الى الشرائع الفردية ، التى هى طرف من حقيقة كل صاحب حقيقة ، وتكون الشريعة الجماعية محفوظة ومرعية لمصلحة السلوك والتربية والتنظيم للقاعدة البشرية ، التى تستجد كل يوم ، وتجاهد بالتجارب كل حين لترقى المراقى •

والذين يدخلون في مراتب الشرائع الفردية ، هم المسلمون حقا ــ هم الاحرار ، الذين سبقت الاشـــارة اليهم ، في هـذا الحديث، حين قلنا ان الحر حرية فردية مطلقة، هو الذى استطاع ان يعيد وحدة الفكر ، والقول ، والعمل الى بنيته • فاصبح يفكر كما يريد ويقول كما يفكر ، ويعمل كما يقول ، ثم لاتكون عاقبة عمله الا خيرا للناس ، وبرا بهم ، وبذلك يستطيع ان يعيش فوق قوانين الجماعة ، لانه ملزم نفسه بشريعته الفردية ، وهى فـوق مستوى الشريعة الجماعية ، في التجويد ، والاحسـان ، والبر ، والتســامى •

« الاسلام دين الفطرة » معناها دين « علم النفس » ، وهو سيهدى البشرية ، من حيث هى بشرية ، بصرف النظر عن الوانها ، والسنتها ، الى ضالتها المنشودة •• هو سيهدى كل انسان الى نفسه ، لانه كما قلنا « علم نفس » وهو بهذا المستوى العلمى ، سينتصر في عصر العلم على الاديان التقليدية ، فيتحقق موعـود الله تعالى : « هو الذى ارسل رسوله بالهدى ودين الحـق ، ليظهره على الدين كله ، ولو كره المشركون » « بالهدى » الى النفوس كما قال « من اهتدى فانما يهتدى لنفســه » « ودين الحق » يعنى دين العلم ، ولسنا نريد الاطالة ههنا ، فان له سفرا خاصا سيكون عنوانه « العهد الذهبى للاسلام امامنا » •

كيف نعرج بصلاة التقليد الى الأصالة

أول ما يقال ان الصلاة هى اشرف عمل العبد ، وانه يجب ان يؤخذ كل مايتعلق بها مأخذ الجد التام •• فالحضور فيها يجب ان يكون تاما جهد الطاقة ، وان تكون الطاقة مبذولة باستمرار ليطول الحضور فيها ، وانما يكون الحضور فيها قبل الدخـول فيها ، ومن أجل ذلك شرعت الطهارة الكبرى ، أو الصـغرى قبلها ، مائية كانت ، أوترابية ، وقصد منها اعداد القلب ليدخل فيها بحضور •• والنجاسة ، في الاصل ، ليست نجاسة الأعضـاء الحسية بالحدث ، وانما هى نجاسة القلب بالغفلة عن الله • وانما جعلت النجاسة الحسية دليلا عليها •

قال السيد المسيح « ليس ما يدخل الفم ينجس الانسان • بل ما يخرج من الفم •• هذا ينجس الانسان » يشير بما يدخل الفم الى النجاسة الحسية ، التى تكون من فضـلات الطعام والشراب • ويشـير بما يخرج من الفم الى كلام المتكلم فيما لا يعنيه، أو فيما لا يعلم «اذ تلقونه بالسنتكم، وتقولون بافواهكم ماليس لكم به علم ، وتحسبونه هينا وهو عند الله عظيم » ويقول المعصوم « ان في الجسد مضغة ، اذا صلحت صلح سائر الجسد ، واذا فسدت فسد سائره ، الا وهى القلب » •

وقد فرض الشارع الطهارة الصغرى بالماء ، أو بالصعيد نائبا عن الماء ، عند تعذره ، أو عند تعذر استعماله ، في حالة النجاسة بخروج الغائط ، أو البول ، أو الريح ، أو في حالة النوم أو حالة

النسيان • وفرض الطهارة الكبرى بالماء ، أو بالصعيد نائبا عنه ، عند تعذر وجوده ، أو تعذر استعماله ، عند الجماع ، أوالاحتلام، أو الاغماء ، أو الدخول في الاسلام •

ويمكن رد كل اولئك الى الغفلة •• فالأمر فيهما يرجع ، أما الى ممارسة لذة البطن ، وتنائج تلك اللذة خروج الفضلات ، وأما الى ممارسة لذة الفرج ، بالمواقعة ، أو الاحتلام ، او مادون ذلك ، والغفلة دائما تصحب ممارسة اللذة •

وقد أوجب الغسل على المشرك اذا دخل الاسلام ، لانه كان غافلا عن الله ، الغفلة الكبرى ، حين كان مشركا ، وأما الغفلة فى حالة الاغماء ، أو حالة النوم ، أو حالة النسيان ، فأمرها واضح •

فالنجاسة ، اذن ، انما هى نجاسة القلب بالغفلة عن الله ، وانما جعلت النجاسة الحسية عليها دليلا ، وعندما شرعت الطهارة الحسية للاعضاء الحسية ، بالماء الحسى ، انما اريد ان تكون هذه الطهارة بمثابة القشرة ، ولبتها الطهارة المعنوية للاعضاء الباطنية ـ القلب والعقل ـ بالماء المعنوى ، وهو العلم •• يقول تعالى : « انزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها • » الماء الحسى معروف ، والاودية الحسية معروفة ، ولكن من الناحية الباطنية الماء القرآن والأودية القلوب • « فسالت أودية بقدرها • » يأخذ كل قلب من القرآن طاقته من النور •

فاذا اردت ان تحضر في الصلاة فيجب ان تحضر فى الوضوء ، ويجب ان تعرف له من الحرمة ماتعرف للصلاة تماما ، لأنه طرف منها ، فهو يبطل بما تبطل به الصلاة .

والنية في الوضوء متنقلة مع غسل الأعضاء .. فلا يكفى فيها ان تقول عند الشروع فى الوضوء ، سواء بحضور أو بلا حضور ، « نويت ان اتوضا » مثلا ، ثم تذهب في ثرثرة أو غفلة ، تجول اثناءها في آفاق بعيدة ، بينما تتحرك اعضاؤك فى الوضوء ، بشكل تمليه العادة فقط .

اذا كنت تريد الوضوء حقا فيجب ان تسير الطهارة المعنوية مع الطهارة الحسية ، متنقلة مع كل عضو .. فعندما تغسل أى عضو من الأعضاء تذكر ، ماذا ادخل هذا العضو على القلب من ظلام ؟ لأن أبواب القلب على الخارج ، التى منها يدخل على القلب النور ، أو يدخل عليه الظلام ، انما هى هذه الجوارح ، التى ينصب عليها ماء الوضوء .

عندما تغسل يديك تذكر ، ماذا اقترفت بهما قبل مجلسك ذلك للوضوء ؟ هل بطشت بهما ببرىء ؟ هل اخذت بهما حقا ليس بحقك من حقوق الناس أو من اعراضهم ؟ هل قبضتهما عن نصرة مظلوم ، أو هل قبضتهما عن بسط الخير لمحتاج ؟ فاذا تذكرت شيئا من هذا ، فاستشعر الندم ، واعتزم التوبة ، واستغفر الله .

وإذا تذكرت حسنة فأخرج نفسـك من رؤيتها وانسبها لله ، ولحسن توفيقه اياك واشكره عليها . وليكن فرحك بالله لا بعملك . فاذا انتقلت الى الفم ففكر في الاسنان وما مضغت ، هل كان حراما أم حلالا ؟ وفكر فى اللسان ، ترجمان القلب .. هل تحدث فيما لا يعنيه ؟ هل اغتاب الناس ؟ هل صمت عن قولة الحق ، وعن نصرة المظلوم ، وعن تلاوة القرآن ؟ فاذا تذكرت شيئا مما تكره ، فاستشعر الندم ، واعتزم التوبة ، واستغفر الله . وافعل مثل ذلك عند الاذن .. استرسالها فى سماع الغيبة وفى سماع اللهو ، وانقباضها عن سماع القرآن ، وقولة الحق ، وكذلك العين .. هل نظرت الى محرم ، أو غمزت عرض أحد ، أو لم تنظر فى المصحف ؟ وكذلك الأنف ، مظهر الأنفة والعزة ، هل ترفعه على خلق الله تكبرا ، أم تضعه لله في الرغام ، ذلا وتعبدا ؟ والرأس ماذا يحوى ؟ هل علما ينفعك وتعمل به ، أم قشورا تضرك ولا تنفعك ؟ واذا انتقلت الى الرجلين تذكر، هل مشيت بهما الى المساجد ، والى مواطن العلم ، والذكر ، وهل تمشى بهما في حاجة الناس ، وفى مواصلة الجيران ؟ هل حملتاك نحو فاحشة ، أو حرام ، أو عمل لايرضى عنه الله ؟؟ وكلما ذكرت عملا ، من هذه الاعمال التى لاترضى الله ، فاكثر من الاستغفار ، وصحح عزم التوبة ، واذا تذكرت عملا يسرك فلاتعظم من عملك ، ولاتقف عنده طويلا ، ولاتنسبه لنفسك ، بل اشكر الله عليه ،

ان وفقك اليه بمحض فضله ، بدون استحقاق منك لذلك التوفيق .

ولا يظنن أحد ، ان هذا العمل الذى ذكرناه ، يستغرق وقتاً طويلا ، فانه يحدث فى وقت الوضوء العادى ، والذى يجب ان يكون متصلا ، وفوريا ، ولا يجب ، بالطبع ، ان تذكر كل كبيرة وصغيرة ، وخصوصا فى بادىء امرك .. واذا انشغلت بجرم كبير اقترفته احدى الجوارح استغرق كل وقتك ، اثناء الوضوء ـ تقلبه ، وتستهوله ، وتستدركه بالندم والتوبة والاستغفار ، فانه يكفى .. فالامر المهم هو اقبالك على قلبك بالتطرية والتليين .. واذا نوعت بقراءة القرآن ، اثناء الوضوء وانت حاضر يواطىء قلبك لسانك ، فانت بسبيل مما تريد ههنا .. ثم انه ، مع طول المران فى هذه المحاسبة ، فان المخالفات تقل ، والانحصار يزداد ، وشريط الاعمال يمر بسرعة ، ويلين القلب ، ويستجيب ، لأنه لازم الحضور كثيرا .

فاذا فرغت من وضوئك ، بهذه الصورة ، يكون قلبك قد تطهر بنور العلم ، ولان بنار الندم ، وتكون اعضاؤك قد تطهرت بالماء ، فاذا ما قمت للصلاة ، فانك وشيك ان تحضر فيها ، بجمعية مناسبة .

ثم انك اذا شرعت فى الصلاة ، فاعلم ان للصلاة حضرتين .. حضرة الاحرام ، وحضرة السلام ، وان لكل من هاتين الحضرتين ادبها الذى لا تصلح الا به .

فاما حضرة الاحرام ، فتبدأ عند شروعك فى الصلاة بتكبيرة

الاحرام ، وتنتهى عند خروجك منها بعبارة السلام •• وادبها حسن الحضــور فيها مع الله ، وســـــتجصل الغفلة بالطبع ، وخصوصاًفى بداية السلوك ، ويصحح أدب الحضور باستشعارك الندم ، بعد الصلاة واستغفارك الله بعدها ، وعدم رضــاك عن نفسك بها ، وذلك بنظرك دائما الى جوانب النقص منها ، مهما كانت حالة حضورك فيها ، وبنظرك الى جــلال من أنت قائم بين يديه •• فان العارفين لقدره ، عندما ينصرفون من الصــلاة ، ينصرفون وهم يستشــــعرون ندم من ارتكب جرما عظيما فى العلانية ، وقد اطلع عليه الناس • وعند ذكرك الثلاث تسبيحات ، ثلاثا وثلاثين مرة •• ســبحان الله ، والحمد لله ، والله اكبر ، فعند « سبحان الله » نزهه ان تكون صلاتك تلك فى مســـــتوى استحقاقه منــك ، وعند « الحمد لله » استشعر فضله ، اذ انه لم يطردك من حضرته مع ســوء ادبك معه ، حين جرت بقلبك الغفلة وانت بين يديه ، مع انك ، لو كنت واقفا امام ضــــابط المجلس البلدى ، فى بعض حــــاجات دنياك ، تكون فى حــالة حضور تام لما يقول لك فى شــأن حاجتك تلك •• ثم انت ، أمام ملك الملوك ، غافل عن كلامه ، اذ يكلمك •• تقرأ باللســـان ، والقلب غـــايب • وعند « الله اكبر » تأكد تماما ان الله اكبر من ان تكبره انت ، فى جميع تكبيرات صلاتك ، وفى جملة صلاتك ، فبمثل هذا الشعور بالذل وبالقصـــــور ، يتم ادبك فى حضرة الاحرام •• ويكون طريق العبودية امامك ممهدا وميسرا ••

ثم ما ينبغى ان يدفعك استشعار القصور الى اليأس ، بل الى اصلاح النقص دائما ، والى انتظار الخير من فضل الله لا من عملك ، فيكون نظرك الى الفضل لا الى العمل فقد قال المعصوم « لا يدخل احدكم بعمله الجنة » قالوا : و لاانت ؟؟ قال : « ولا انا الا ان يتغمدنى الله برحمته » .

واما حضرة السلام ، فتبدأ بعبارة السلام للخروج من حضرة الاحرام ، وتنتهى عند تكبيرة الأحرام للدخول فى الصلاة المقبلة .. فهى الصلاة بين الصلاتين .. هى الصلاة الوسطى ، التى قال تعالى عنها « حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى ، وقوموا لله قانتين » يعنى حافظوا على الصلوات الخمس المكتوبة بتمام ادائها لمواقيتها ، وكمال اركانها « والصلاة الوسطى » هى معاملة الناس بين الصلاتين المكتوبتين بمعاملة الله فيهم « وقوموا لله قانتين » يعنى كونوا لله ذاكرين ، غير ناسين ، فى كل مقام تقومونه ، فى المنشط والمكره ، وفى متقلبكم ومثواكم ، واثناء اخذكم وعطائكم ، فى معاملاتكم بعضكم بعضا ، فى امور معاشكم، وفى امور معادكم .

ولهذه الحضرة أدب جماعه السلام ، وقد اجمله المعصوم في عبارة « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده » . ولشمول معنى الحديث قلنا ان « المسلمون » تعنى كل خلق الله ، من الأشياء والاحياء ، فان كل شىء قد خلق بحكمة ، ويجب ان نتوخى حكمة الحكيم فى مباشرتنا اياه . « قل أمر ربى بالقسط ،

واقيموا وجوهكم عند كل مسجد » والقسط يعنى توخى العدل والحكمة فى كل معاملة ، « واقيموا وجوهكم عند كل مسجد » يعنى اقبلوا على الله بوجوهكم ، لا بظهوركم ، ومعنى هـذا ، الاقبال عليه ، بالحضرة لا بالغفلة • و « عند كل مسجد » يعنى فى كل حين ، لأن المسجد هنا لا يعنى البناية المعدة للعبادة المكتوبة فقط ، وانما يعنى كل بقعة من بقاع الارض •• فى السوق ، وفى الشـارع ، وفى المكتب ، وحيثما تكونوا ، لأن الارض كلها قد جعلت للمسلم مسجدا •• وفى الحق ان المساجد هى الذوات كلها ، وخصوصاً الذوات البشرية ، وبشكل أخص من كان منها مقبلا على الله •• وذلك بأن الله تعالى يقول « ماوسـعنى ارضى ولا سمائى وانما وسعنى قلب عبدى المؤمن » والمساجد هى بيوت الله •• هى قلوب العباد ، بالمعنى العام وبالمعنى الخاص ، ومن يفهم شـمول القرآن يعـرف أن « واقيموا وجوهكم عند كل مسـجد » تعنى ، عاملوا الأشياء والاحياء ، بعناية وتوقير من يقوم فى محراب الصـلاة المكتوبة • وأدنى مراتب أدب حضرة السلام افشاء السلام بين الناس ، بالاكثار من التسليم عليهم بعبارة « السـلام عليكم » • ولا يكن قولها عن طريق العادة ، ولكن بنية المسالمة والموادة حاضرة فى القلب •• ثم يلى افشاء السلام ، كف الاذى عن الناس •• ثم يليه احتمال اذاهم ، ثم يليه توصيل الخير اليهم ، بالنية الطيبة فى الضمير والقول الطيب

باللسان ، فالله تعالى يقول « وقل لعبادى يقولوا التى هى احسن ، ان الشيطان ينزغ بينهم ، ان الشيطان كان للانسان عدوا مبينا » ويقول « وقولوا للناس حسنا » •

ثم بالعمل الصالح ، والسعى الصالح ، في حاجات الناس ، والقاعدة « لا يؤمن احدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » أو « عامل الناس بما تحب ان يعاملوك به » أو بما تحب ان يعاملك الله به ، يوم فقرك وحاجتك ، فانك كما تدين تدان •

وهذه الحضرة ــ حضرة السلام ــ تتطلب نفس الحضـــور الذى تتطلبه حضرة الاحرام ، وذلك أثناء معاملتك الناس • فانك تتوخى وجه الله دائما ، وتراقب حالك دائما ، وقد سميت تلك الهيئة بالمراقبة ، وبالمراقبة تكون حال التقوى •• فان التقوى هى عمل ، أو ترك للعمل ، ابتغاء وجــه الله •• « ومن يتق الله يجعل له فرقانا » و « الم ، ذلك الكتاب لا ريب فيه • هـــدى للمتقين » « واتقوا الله ويعلمكم الله » •

وستحصل الغفلة فى حال المراقبة بالطبع ، ويفلت الزمام من بعض الجوارح ، وخاصــة اللســـان ، ويقع الخطأ ، ويتورط السالك فى مخالفة أدب هذه الحضرة ــ حضرة السلام • ويكون جبر المراقبة بالمحاسبة ، التى ذكرناها عند الوضوء ، الذى يكون فى اخريات حضرة السلام ، للتهيؤ للدخول فى حضرة الاحــرام

الجديدة ، وفى المحاسبة استدراك لما افلت من المراقبة ، كما يقول اصحابنا • ثم ، لجبر سوء الأدب فى حالتى حضرة الاحـــرام وحضرة الســلام ، لابد من الصيام ، ولابد من تقليل المنام ، وتقليل الكلام •• فان قلة الطعام ، وقلة المنام ، يقللان فضول الفكر ، وفضول الخواطر ، وفضول القول ، ومن ثم فضـــول العمل ، ويجعلان القلب متفرغا ، للاقبال على الله بجمعيته •

وهناك امر يسير ، وهين ، وخفيف فى الاداء ، ولكنه عظيم النفع ، وقد كان سنة المعصوم ، وهو مراقبة تفضيل الميامن على المياسر •• فقد كان اذا دخل المســجد قدم رجله اليمين ، واذا خرج منه قدم رجله الشمال ، وكان اذا دخل المرحاض قدم رجله الشمال ، واذا خرج قدم اليمين ، وكان اذا نام توســـد يده اليمين ، واستقبل القبلة ، وكان اذا اراد ان ينتعل بعد نهوضه من مجلسه ، قدم رجله اليمين ، اذا كان النعل ألين من الفراش الذى كان واقفا عليه ، أو قدم رجله اليسرى ، اذا كان الفراش الين ، وانعم من النعل • فمثل هذه الاعمال اليســيرة لها عظيم الفائدة فى محاربة العادة ، التى تســيطر على تصرفاتنا دائما ، اذ نتحرك فى كثير من أعمالنا بغير وعى ، ولا فكر منا ، وانما بما تمليه العادة ، وفى محاربة العادة تنشيط للفكر ليحل محلها •• ان آفة كل عبادة أن تكون عادة •• هذه قاعدة ذهبية يحســن تذكرها كثيراً •

وايقاظ الفكر هو غـرض العبـادة ، ولذلك فقد قال تعالى « وانزلنا اليك الذكـر ، لتبين للناس مـانزل اليهم ، ولعلهم يتفكرون » .

« وانزلنا اليك الذكر » يعنى القرآن و « لتبين للناس مانزل اليهم » يعنى لتفصل للناس شريعتهم ، « ولعلهم يتفكرون » يعنى لعل العبادة تشحذ فيهم ملكة التفكير ليتولى الذكر توجيهها فى مراقيها العليا .

ثم ان تفضيل الميامن على المياسر هو اعطاء كل ذى حق حقه ، وهو وضع الاشياء فى مواضـعها .. وهو الحكمة ، التى هى اخلاق الله .. وقد قال المعصوم : (تخلقوا باخلاق الله ، ان ربى على سراط مستقيم) فكأننا بهذا العمل اليسير ، البسـيط فى تقليد المعصوم ، قد بدأنا التخلق باخلاق الله .. وبفضل الله وبتوفيقه ننتقل فى معارج الحكمة ، حتى نبلغ من هذه البداية الساذجة ، البسيطة ، مبلغ المعـرفة بالله ، اذا ماسرنا بعقول مفتوحة ، وجعلنا العدل والقسط والاستقامة هى اسلوب معاملتنا للأشياء والاحياء .

خاتمـــــة

اما بعد فهذه رسالة الصلاة .. تتحدث بايجاز عن الصلاة فى ادنى مستوياتها ، حيث تكون عبادة لله ، وفى أعلى مستوياتها ، حيث تكون حياة عند الله .. وكل عبادة لله ، انما المـــراد منها ان تصير حياة لله ، فان قصرت عن ذلك فهى باطلة .

وسيظن اقوام ان في هذا القول شططا ، واننا غير مكلفين به ، كما تعودنا ان نسمع منهم دائما ، فليقرأ هؤلاء قوله تعـــالى « واتبعوا أحســـن ما انزل اليكم من ربكم مـــن قبل آن يأتيكم العذاب بغتة وانتم لاتشعرون » وأحسن ما أنزل الينا مـــن ربنا الاسلام ، الذى هو نهاية ، أذ به يتم سلامنا مع نفوسنا ، وسلامنا مع أخواننا في الحيـــاة .

* ● *

الفهرســــــــت

الصفحه

الاهـــــداء	٣
مقدمة الطبعة الخامسة	٥
مقدمة الطبعة الرابعة	٩
الدين .. الدين ما هو ؟	١٠
الانسان .. الانسان ماهو ؟ ومن هو	١٣
المرحلة الاولى من نشاة الانسان	١٤
المرحلة الثانية من نشاة الانسان	١٤
المرحلة الثالثة من نشاة الانسان	١٦
النبوة الأولى ـ خلافة الأرض	١٨
نشـــــاة العقل	٢٠
ما هى الحاسة السادسة ؟؟	٢٥
ما هى الحاسة السابعة ؟؟	٢٥
المرحلة الرابعة من نشاة الانسان	٢٧
عودة للمرحلة الثالثة من نشاة الانسان	٣٠
الدين قبيل آدم	٣٣
العقل الواعى والعقل الباطن	٤٠
العقل الواعى ، وكيف نشا ؟	٤٧

وحدة البنية البشرية ٥٦
خاتمـــــــــــة ٦١
بشـــــــارة ٦٢
توطئة البحث ٦٤
المدنية الجديدة ٦٥
المدنية الغربية ذات وجهين ٦٦
الفضل للتوحيد ٦٧
الفردية هى المدار ٦٨
الحرية الفردية المطلقه ٧٣
الصــلاة وســـيلة ٧٤
الرضا بالله عبودية ٧٦
العبودية هى الحرية ٧٨
ما هى الصـــــلاة ٨٣
للصلاة معنيان ٨٦
التقليد ٩٤
الاصـــــالة ٩٦
الصلاة بين المؤمن والمسلم ١٠٣
كيف نعرج بصلاة التقليد الى الاصالة ١٠٨
خاتمـــــــــة ١١٩